سيدةُ المعبد

"ذكرى العائدين من الورق ..."

رواية

مراد غزال

الإهداء ...

إلى أمي من دون كل النساء ...

إلى المقهى الأدبي "عمي صالح " بمدينة الملح والسكر "مدينة المغير "

إلى روح القديسة التي قالت لي ذات مساء "إني أنتظر روايتك بشوق ..."
ومازلت أنا أمارس ذاك الشوق لروح الأستاذة "عائشة عويسات "...

إلى شباب مبادرة "المغير تقرأ"...

إلى سيدة المعبد التي أحببتها بصدق ....

أهدي هذا الجرح ....

المشهد الأول

"ربما ..."

"قيل وُجدت الرّبما للهروب من النّعم و اللاّ "

نهضت باكراً مستعيرا الفرحة من شرفتي ، متناسيا ليلة البارحة وصوت التلفزيون يشير إلى لا مبالاتي ...

تنمقت بساعتي واتشحت قميصي الزهري وعتقت ذكرياتي بقليل من عطرها ولو كُرها قبلت فنجاني ولملمت قصاصاتي المتخمة بهمومي .وانصرفت حاملا روايتي متجها نحو موظف الاستقبال البغيض...نزلت سلالم توحي بأن المكان لا يصلح لأمثالي.نعم هي خيبتنا المرسومة بالورق ،نكتبها لأننا نود أن نعزف نوتة أخرى تُشعرنا أننا مازلنا نحيا بسلام .آثار السهر بادية علي وشعري الذي لم أمشطه اليوم عنوةً لأن تسليم مخطوط روايتك يشبه يوم انتحار أحدهم .والانتحار لا يُلزمنا أن نُلبس أنفسنا تبرجا ،يكفينا أن نبقى عرايا ليمر عبر لهفتنا شيء يكنى بالحلم ....

لا أذكر عن صغري إلا صورا ضبابية لم تزل ذاكرتي تحاول الاحتفاظ بها.ولدت بدوار شلالة العذارى ،يحكى أن القرويين زمن الاحتلال كانوا يخفون بناتهن بهذا المكان مخافة أن يُغتصبن ومنذ ذاك الزمن أُقترن اسمها بالعذارى ،أما شلالة فهي اسم قديم وصفت به المنطقة لكثرة الشلالات آنذاك.نشأت بعائلة تترنح أيامها بين العوز والتنمق بالرضا الذي يشعرنا باعتزاز ظرفي يُدخل نوعا من السعادة المسوفة لبيتنا .كانت أمي امرأة مثقفة ولكنها كانت تتشح نوعا من السطحية والمسامحة حتى التفريط في أبسط مفردات سعادتها وشاءت الأقدار أن تلتقي بشخص أبي ذلك الرجل الجلد والقاسي ،يشعر كل من يجالسه بالغلظة ولكنه كان سندا قويا وصاحب رأي ومشورة بقريتنا .

أخبرني التاريخ أنه في سنوات ولادتي لسبب ما مس العالم أزمة اقتصادية هزت كل أركان المال عالميا فانهارت البنوك وأفلست الشركات واتخمت الدول بتضخم السلع ومن دواعي السخرية التي يتبجح بها والدي كلما تشاجرت معه أن هذه الأزمة هزت كل أركان البلد واتبعت الحكومة سياسة تقشفية وتساقطت الحكومات بالتوالي وبدأت النعرات الطائفية واستقال الرئيس ، وفي خضم هذه الأزمة تزعزعت أمورنا العائلية بالرغم

من أن أبي لم يكن موظفا حكوميا وكان مجرد صاحب تجارة على تخوم الطريق ولكن لوعته بالشأن السياسي ونرجسيته بالتعاطي للازمات ورهط المصفقين وراءه جعله ينظم إلى صفوف الفقراء التي اتخذت الشارع ملاذا لها وهتفت ضد الحكومة فسجن أبي بهذه الأزمة ولكن لسبب ما لم تذكره أمي أفرج عنه وهذا لعلاقات كانت تربطه لم أعها آنذاك ...

ولدت أنا في هذه الأزمة وسميت "سعيد" وهذا لشيء ميتافيزيقي كان يربط أمي بهذا الاسم ولم يرفض أبي .ولدت مستعجلا شهرين من حياتي ، هكذا هم المستعجلون يعشقون الحياة والحياة تحب العاشقين...

وبتلك الزاوية من الزمن تتراءى لي يوم الذهاب لخالتي التي تقطن قرية تبعد مسافة تتبعي للجبال المصبوغة بلون السواد يخبرني من أكون معه أن الجيش أحرقها باحثا عن جماعة يخالها الطفل في صدري غولا ينام معي وتنومني بحكاياتها أمي .و أرى بيت "عمي محند" وقد دُمر وكُتبت عليه عبارات بلغة بربرية لا أفهمها ...ولكن بولوجي عالم خالتي وبيتها الذي تسمع فيه صوت الحياة بكل مفرداتها وبمجرد الاقتراب منه تشم عبق البداوة وذاك الإسطبل الصغير الذي أحن إليه وتراودني طفولتي كل مرة لأتشاجر مع دجاجاته وأشعر بعنفوان ديكه .أما زوج خالتي فكان رجلا ينحدرً من منطقة الغرب البعيد لا أراه إلا قليلا . و بالرغم من الوسط المتبرج

بالبداوة إلا أنه كان بالتنمق ما كان .يلمس الجمال ويعامل عالمه بكل شاعرية ،كلماته القليلة تشعرني أنه يُخفي العديد من المعاني عند ذاك الحيز من الصمت .أما في المساء عندما أجهز نفسي لاستقبال الذهاب إلى الحقل وجميع مفرداته التي كنت أعشقها آن ذاك ولكن أشعر بأعماق الأنا أن هذا العالم لا يناسبني بالرغم من اللوعة التي تجتاحني .ولا طالما لم تُمحَ من ذاكرتي تلك الصورة الجمالية وزوج خالتي متكئ على شجرة الزيتون الوحيدة بالحقل وهو يحمل عوده وترانيم الحزن تغشاه وتبعث بخواطرنا إلى جزر الأسى ،ربما لأنه يحن إلى وطن ...

أما بحينا فكانت نظرات الولد المدلل تزعجني ولطالما تظاهرت بعالم التمرد والعصيان .أما بالمدرسة بمجرد الاقتراب من ذاك العالم سنواتي الأولى كانت جحيما .فصادفت باقي الأطفال وهم يدخلونني عنوة عالما يقع بعيدا عن عالم الجمال والبراءة المرسوم على تخومي .

ولكن عندما أستفيق على ضوء كلماتي وتتأرجح ذاكرتي بين طيات عالمي وأحاول أن ألوك السذاجة الممزوجة بعطر السطحية التي عايشتها سنواتي الأولى من هذه الرحلة .تلك التي تُشعر ركابها بأنها ليست ملكاً لهم بل ملك البحر الذي يركبونه .فعلا عايشت فوضى عالم أبي .فكان الرجل الغامض الذي يخفي أسرارا وعلاقات تمكنه من التشدق بعدم الرضا وهذا

في حضرة جوع حضارة وحقوق هضمت على حسب النجوم التي يلبسها مُريدو حلقة شيخ البلاط ،صاحب السمات الجريئة التي تحبها أمي رغم عدم البوح .و لمّا أصاهر عنجهيته وتفكيره الحاد أرى من خلال ثقوب فكري التي صنعتها خوفاً و بعين الريبة التي نعيشها عنوة.فكما ألمس دائما في تقطب جبينه أنه لا مكان للضعفاء بعالمنا .حاولت بسنواتي الأولى تقليده وهو ممسك بتوجسه وعدم رضاه . يقابل جهاز تلفزيون قديم ورثته أمي وتتباهى دائما أنه من رائحة جدي بالرغم من أننا في هذا البيت نتمنى أن عطر جدي لامس عبقه تجارة مربحة أو جنة ذات أفنان تُخرجنا من عالم عدم الرضا ،ولكن كان عزاءنا الوحيد بعيدا عن ذاك الجهاز أنه أورثنا اسما نتباهى به بين الجالسين على حافة الذكريات .يقلب أبي الأخبار وأنا بجانبه أرى قسمات وجهه التي أكتشفها عند تلك المساحة من الزمن وكأنه يقلب أوجاع جيل كامل ضاعت آماله في إنشاء وطن فساهم في غرس سد أخضر كادت شجيراته تطمس معالم عُقبة و كُسيلة واختفت وراءه كل دنانير خبز الصباح وغطت الأحلام كل آلامه .يردد دائما كلمة تعبر بي منذ ذاك الحين إلى بُعد لم ألمسه إلى الآن ،كلمة يتباهى كل جزائري بالتبجح والاختفاء وراءها تهرباً أو عنجهية مقيتة تلامس بُعده المغاربي الجَلد ،كلمة " الله غالب " فيها توحيد بذات إلوهية نركن إليها عندما يُهزم العامة وغالب صفة نبعث بها بعيدا عن ذواتنا لكي لا تتزاوج مع صفة الضعف التي تتملكنا ويولد

سفحا شيء لا يكنى بشيء ويشعرنا بأننا لا شيء .تصيبني نشوة وأنا أراه يلعن البراميل التي خنعت لعاصفة الصحراء والمشاركة العربية بكل جيوشها التي ظهرت لوهلة واختفت.ولم يفهم الطفل الصغير في صدري كل هذه المفردات التي يلقي بها أبي جزافا ولكنني كنت منتشيا أن أبي يمارس عصبيته بعيدا عني .

بعيدا عن المفردات المشتعلة بهم وطن وسياسة يخالها أبي نقطة ثابتة نستطيع المواراة من خلالها والابتعاد عن واقع يسكننا ،وكذا بعيدا عن كائن أنثوي تنتشي به أمي دخل بيتنا ،كنت أنزوي ولا استطيع الهروب منها .أكلمها فتسحب مني جميع أوراق هويتي و تدخلني عالمها الكئيب ،دائم التفكير في: من أنا ؟.

من هذه الأنا التي أُسكنا إياها رغماً ونتحملها كل حين .أتُراها الأنا هذه كما قال أحدهم لا أود أن أتعب نفسي وإياك بتذكر اسمه فهو حتما يحمل أناً أخرى تزعجه " عندما أجهد نفسي لاستبطان هذا الأنا .لا أعثر دائما سوى على هذا الانطباع ,ولا أظفر بغير هذا الإدراك " ..إذن من نحن يا من كتبت هذا وكل منا يستوطن أناه تلك التي تُشعرنا أننا نحن .

في مرحلة الثانوية دخلت زاوية من عمري تحمل لونا مختلفا عن عاديتنا السمجة ،هناك في الصف الثاني في المقعد الخامس علمتني الأعداد

كيف أمارس حياتي بعيدا عن الأنا .كان يوم أحد وأنا أكره الأيام التي تكون بعد إجازة ،دخل وأنا جالس أتصنع الاحترام أمام زميلتي لتراني بكل عنفوان وسذاجة تلك المرحلة ذَكَرها الذي يمكن أن يستحلها ،هي ليست أجمل النساء ولكنها أجمل شيء هناك بالصف فقط .

دخل مختالا بشبابه ،منذ الوهلة الأولى راودني إحساس أنه الخلاص .

قال: السلام عليكم ...أعتدل بني.

قلت :نعم. وكدت أقول أكيد .

هو الأستاذ معاذ المتخرج حديثا يمارس الحديث باحترافية، يعشق الجمال فمشيته وعطره وإمساكه سيجارته خارج الصف وكلامه الذي يأخذك بعيدا عن ذواتنا المادية ،يعشق الأدب ويحن إلى الزمن المعتق بالحكايات .علمنا معنى التمرد، التمرد على منظومة حياتية كاملة فأخرجنا من راديكالية الصف ولقمنا معنى الحرية والتعبير عن الذات .تكلمنا زمن الدرس عن كل شيء ولم تقيدنا جدران المنهج ولا سترة المدير العتيقة ،علمنا كيف نتكلم بعيدا عن ذواتنا .ولكنه ذهب بعد ثلاثة أشهر فقط ،لا لشيء إلا لأن الحياة لا تؤمن بالمتغيرات التي تزعجها فجأة .وتريد منا أن

نساير جنونها وننحني إجلالا لعظمة الروتينية ،فرفعنا قبعة التحية لسترة المدير وتعلمت أنا سعيد أن لا آمُن الزمن ولا أفرح للجمال كثيرا وتناسيت معنى الحب .

أما عندما تخنقك المسميات وتستبيح مساحة الفكر عندك .في رحلة البحث عن كل المفردات المتناثرة في ذاكرتي و قبيل دخولي الجامعة وكل هذه الهالة المفتعلة التي أثيرت حولي فالظروف القاهرة التي مست تجارة والدي ومرض والدتي والأمل الذي يخنق جوارحي فلطالما تمنيت أن أكون إنسانا عاديا يُفرح من أجله وتهيأ له الحياة أريكة الفرح .ورغم كل هذا السواد الذي ساد أيام نجاحي إلا أنني كالعادة لست من الأشخاص الذين يهتمون بالتفاصيل الحياتية ودائما تعبر بي رؤاي على زمني .الهُيام هو وهم التستر وراء البعيد للبحث عن كل المسميات التي تخيفنا .فعلا واصلت رحلة البحث عن كل المعاني العالقة بيختي ،واصلت الهُيام تجاه الحب ،الحرب ،الدنيا ،الدين،ربما فكرت في مفردة الحب ،ربما بالدين فهما مفردتان متناظرتان يسيران في سرداب واحد هو سرداب النفس ،ويعبران معا نحو البحث عن وجودنا.

كنت قد سجلت بكلية الحقوق لا لشيء إلا أنني كنت مهووسا بهالة التعاطي للشأن السياسي التي صنعها حولي أبي ولكن ربما بُعد التدين كان

دائما يشدني إلى عدم مقارعتها حتى الثمالة. فمفردة الحقوق هي ذاك النور البعيد الذي يؤنس وحشتنا ونحن مسجونين بشرفة الانتظار فتبعث بنا وتمدنا بكل سكاكر العيد ...ربما .

ها أنا متوجه نحو الجامعة مع زميلي ياسر نسير ونحن نودع كل ركن من أركان ذكرياتنا وكل شجيرة احتمينا بها ،نحمل بين أيدينا حقائب غربتنا كما يصفها ياسر وكنا برفقة أبو ياسر عمي ميلود متجهين نحو موقف الحافلات وأنا أتكلم مع صمتي وأجول بخاطري كالعادة ولكن ياسر كان شابا ذو شجون تعجبني كلماته وهي مُطعمة ببعض الكلمات الشامية التي أورثتها له أمه, فأم ياسر فلسطينية من مخيمات الشتات في لبنان تزوجها عمي ميلود وأحضرها لتعيش معه .أُتخم جونا بكلماته وهو يخبرني بصوت خافت عن العالم الذي ينتظرنا وهو مختال بنوع من الرقة الشامية التي يكرهها فيه والدي .وبمجرد صعودنا الحافلة حتى لامست أذني كلمة من عمي أحمد :

"تفضل أستاذ" . نعم هي نظرة القروي للمثقف فقد كُنت أنا وياسر من القلائل في القرية الذين نغادرها للدراسة ،فمعظم شباب القرية يذهبون للعمل بالعسكرية "لبلاد " كما تقول جدتي فأمهات القرية تبعث أولادها للعسكرية رغم أن الجبال أحمرت بدماء الجزائريين الذين يقاتلون

بعضهم وعندما أسأل أمي لمَ الأمهات يبعثن أولادهن للموت، تقول هو آخر الدواء يا ولدي .فأولاد الفقراء تودعهن أمهاتهن بالدموع وقلوبهن فرحة بوعد ابنها بقسط من راتبه سيبعثه لها نهاية كل شهر ،فتمشي على استعلاء بين جاراتها لأن ابنها هزم الموت بقروش تبعث الحياة بعائلتها .جالست ياسر ونظرة الحسرة تملؤني وكلما ابتعدت عن ناظري ذكرياتي آلمتني، فالذكريات نفحات من الجنة نحبها ونخاف منها وتجرحنا إذا أخرجها الزمن من عباءته فقد أحبته ولم تدخل قصصهم كنيسة الكاثوليك .عند تلك المساحة من الزمن تمنيت أن أبقي على طفولتي ومطاردة البقر وقصص الذنب .وقد اجتاحتني هالة من عدم الرضا ولكن كلام ياسر عن عالم العربدة والحرية المنشودة شدني عنوة.

وبعد طول انتظار وصمت ياسر المفاجئ وانزوائه مع اشتياقه، أخرجت كتابا كان قد أهداني إياه الأستاذ معاذ عنوانه "أعواد الثقاب " فبمجرد ملامستي له شعرت بالأمل يجتاحني وسلب مني حنيني للأستاذ معاذ وكل مفاهيم الحرية التي لُقمت . أبت دمعتي إلا أن ترافقني كحملي لهمومي .ومع تصفحي لوريقاته المزهوة بلونها الداكن وحبكتها التي تعبر بك نحو عيش البؤساء وهموم الناس لامست شخصية عامل المقهى وهو يستقبل في خشوع كل يوم شخصية أو بالأحرى هماً نروح ونغدو معه هي

رواية لا نكاد نسمع بكاتبها بعالم المنمقين ولا رواد المنتديات ولا مثقفي الفضائيات .هي رواية كل حروفها تقع بحيز المقهى القديم وتتكلم برَوية عن الجالسين عند نهايات الأزمنة ،تتطرق لشخصيات عدة فترى الجالس أمام الباب وكأنه ينتظر مصيره ،هو الشاب الذي سجن لعدة أشهر و أهين لا لشيء إلا أنه كان يحاول أن يحلم بوطن لا تخنقه ربطات العنق والأخر الحزين هناك والذي يختفي وراء جريدته لتنسيه غدر حبيبته التي سافرت مع آخر وتركت ذكرياتها تزعجه ويزعجها .والقروي الثالث الذي اقتحم عالم المدينة وتكَشف عن مفاتنها وفي الأخير عنده أيقن أنها مدينة هوى تجمع الكل ويبيت عندها واحد فقط ولم يلتقِ حقا بما كان يصبوا إليه .كل هذه الهموم وغيرها أدخلتني عالما من التبصر الحزين ولكن شخصية العامل الذي كان يشتغل دور المصغي حيرتني فبالرغم من أن كل صفحاتها التي ترغمنا على الصمت إلا أن عامل المقهى كان يسمعها ويعقب على كل نوتاتها بدون إزعاج اللحن العام .هي شخصية فذة بحق ولكن ما كنت أفكر فيه حقا والذي أخفاه الكاتب عند المساحات البيضاء التي لم يلطخها القلم هي هموم العامل .

فهل هو كل شخصية منهم ؟

هل وجد عندهم ما يخفف عنه ؟

هل كان يتكلم عن ذاته بينهم ؟

هو لم يخبرنا بهذا ولكن قبيل نهاية تصفحي و بعض إزعاج من طفل كان يلاعبه ياسر شعرت بالمعنى الذي كان يتكلم عنه الأستاذ معاذ عن الحرية التي تتملكك حين تستمع للكل .

وككل روايات الحب والحرب التي يخوضها الذين تعُدهم الحياة لم ينكشفوا عن سوءاتها بعد ،وبعد انسحابي من عالم النادل وولوجي عالم ياسر واستراق النظر من وراء زجاج نوافذ الباص وذاك البُعد الذي يأخذك وأنت تسترق الحكايات من العالم البعيد عن ذاتك وتلك الطمأنينة بأن القدر ألبسك عباءة المُقيّم "إحدى صفات الغيب ترى ولا تُرى " كما قال درويش ،ركنت نفسي الغريبة عن ظاهري لترى الجميلات وهن ملتحفات بكل أنواع التبرج الذي يضفي نوعا من اللذة التي تكمل صورة التمدن .مع أني كنت من أولئك الذين يمقتون التبرج وبسليقتهم ينفرون منه إلا أنه بتلك اللحظة تنازع بعدان ذاك النفور أولهما البعد القروي الذي يطرق باب نفسك كل ظهيرة ليزف خبر أنها محتاجة لهذه المفردة وثان قرأته بخاطرة من كتاب بخزانتي بعنوان "تبرجك احترام " حيث بعث بي صيدها أن التبرج قد يرادفه الاحترام أحيانا ...

بالغت في التستر وراء تلك اللذة ،فتحركت أناملي لتخبرني بموعد لإثارة بعض مشاعرٍ ونخدش معا حياء الورقة كالعادة .لم أعثر على قلمي فالتجأت لعادة لازمتنا نحن الفقراء وانتظرت شابا كان يهاتف زميله بلهجة مغربية ويخبره بأن صاحب العمل لم يرضى بالسعر ،لم تتجسد لحظة الانتظار في قلمه فحسب بل كنت مستاءاً من حديثه عن تجبر صاحب العمل ولهفة صديقه الواضحة من تطميناته "دابا راني في الطريق ،ما تخافيش عليا " .ومن هناك تراءى لي الشاب مراد فبالرغم من أنه شاب ذو ثقافة واسعة وغيرة محيرة لما آلت له أوضاع البلد وكذا الحب الذي يكنه لي .فلم أرى إنسانا يحمل كل هذه المتناقضات فيحب وطنه حد الجنون ويريد الهجرة ويحسن الكلام وبارع بامتلاك القلوب إلا أنه لم يفلح في الحب لحد الساعة رغم كبر سنه ،ربما لأنه حالم لأن الأحلام تسافر بك ولا تشعرك بغدرها ولا تلام لأنك تمارسها ،يحمل جريدة كعادته ليقرأ ما يسكنه عالما غير وظيفة الحارس التي يكرهها ،أتراه بقى حارسا رغم شهادته الجامعية ليحرس أحلامه من النسيان؟ .وبجنبه دلال تلك الفتاة التي لم يعرها مراد اهتمامه رغم جمالها ربما لأن أباها عمي أحمد رجل متسم بالبذاءة ويشتغل محصل بالسوق .و ها أنا أرى حسن يقترب ليطلب الأجرة فهو ابن صاحب الباص ،شاب يحب أن يعيش ولا يطارد الأيام ولا يجالس الرؤى ،يعمل حتى العصر ثم يجلس عند مقهى القرية حتى الليل يتسامر هو و أمثاله بعورات

العباد وحكاياتهم .ومن هناك الحاج مسعود المجاهد الذي يتغنى ببطولاته رغم أنه كان يشتغل بمنجم الفحم طيلة زمن حرب التحرير .

أنساني المشهد خاطرة كانت تجتاحني لم أتذكر منها غير "لو لم نكن ..."

طارت خاطرتي مني أو بالأحرى طارت بي وأخذت طائرتي الورقية التي تشير لفاقتي وأوهمتني أنني أهم كائن يحق له أن يتكلم هناك .

لا أعرف لمَ تذكرت جدي وهو يغازل فنجان قهوة العصر وصراخ جدتي الدائم " سيقتلك هذا الفنجان يوما " .فقد كان يمارس عشقه للقهوة باحترافية ويجلسني ويتغنى بسوادها الذي يراه بُعداً جميلا لا تراه غير عيون العشاق .ثم يمارسان نوعا من التودد الهادئ فتكلم جدتي فنجانه وتعطره بقليل من ماء الزهر لتقضي وطرا منه ،ربما لأنه لا يزال هناك حيز للعشق بينهما .

نزلت من رحلة الباص التي كادت تأخذني إلى نهاية كل شيء ولسخرية الصدف أول شيء قابلته ورجلاي تلامس تراب المدينة لم يكن شيئا لينسى .بعد بعض خطوات يتقدمني ياسر المبهور بجمال حضاري ملكه. شدتني حقا "بسطة " صغيرة ،عبارة عن إزار مزركش بورود حمراء مبسوط أرضا

.عند حده الأول إبريق شاي وبجنبه ست فناجين أحدها مملوء.مفروشة بجنبها مجموعة كتب قديمة وتعلوها خيمة أعدت خصيصا بحجم البسطة ،ممسكة بها بالونات ،عدة بالونات حتى يخيل لك أن البسطة ستطير .تعلو هذه الخيمة لافتة صنعت من ورق كرتون صناديق السلع كتب عليها " بائع الأحلام ".

كانت ليلة ممطرة عندما دخَلت خلفي لمطعم "عمي الطيب " المطعم الذي ليس بالمصادفة يقع بضع خطوات عن مطعمنا المفضل ،ذاك المطعم المحاذي لبائع الورد ،كل زاوية منه تذكرك بشاعرية صاحبته وطربوش جده الذي يعلو راديو يعتز به .بمجرد الولوج إليه تشم عبق الشام وفي طريقنا نشترى خبزا فلسطينيا وبائعة الخبز التي تكون جريدتنا اليومية وتلامس فطرة الأنوثة لديها وأشعر بحبها أكثر كلما زادت المفردات المتخمة بذكر تلك البائعة وابتسامة بائع الورد التي تبعث بي كل مرة إلى بُعد نفهمه إلا نحن ووريقات الورد.دخلت بعدي ربما لأنها كانت لا تزال تحتفظ بشيء من الحنين ،أم هالة عالمي من جعلتها تخاف .بشيء من اللباقة المصطنعة أزحت كرسيك لتجلسي رغم أن كل الحضور رآنا ونحن نستبق الخطى وسمات وجهها التي تعزفها مدامعها دخلنا تباعا وكأن كل منا يسارع لكرسي الذنب .نعم الذنب هذه الكلمة التي طالما أسمعتني إياها وكانت جليسة دائمة بين رسائلها ولطالما أسمعتني مفردات مشابهة حتى في نشوة لقائنا .أتذكر عندما أخبرتك أنني كنت أحب غيرك فتقطّب وجهك و ابتسمتِ تلك الابتسامة التي أحبها أنا ،تصبحين كالملائكة وهي تمارسين تلك الابتسامة بخبث ثم تجملتِ بقليل من كِبر النساء وقلت :" ثم وقعت بحب من ؟"

لم أعِ معنى الوقوع آنذاك .أتراه شيء يأخذنا معه إلى قعر وجودنا؟ وننتشي عند تلك المساحة من الحضيض .لطالما أحببتها بعفوية لا تؤمن بالكثير من المعاني فاجتازت بي كل الحدود وأخذتني منفردا إلى زنزانة الجنون .أذكر ذاك اليوم عندما استفقت صباحا ليخبرني حنيني بأني مشتاق ،فحاولت أن أفتح صندوق رسائلي المملوء بقصاصات الفراغ . ربما هو وهم صنعته هواجسنا المركونة على رصيف الذكرى .أذكر كل تفاصيل تلك الحادثة التي نسجت عندي أوهن الخيوط التي كدت ألمسها لولا اللوعة بك .هاتفتها عند السابعة لعدة مرات ،وكانت تخبرني رنة هاتفها أنها ليست بخير واصل رنينه ولما أبى الزمن إلا أن يعاندني ولم ترد على تلك اللوعة الحارقة وقد كنت أريد ارتشاف صوتها وتسترت وراء الاطمئنان عليها .سار بي وهمي حتى الظهيرة. رغم أني كنت أعرف تصنعي ببراءة لا ألقي لها بالا .انتظرت حتى نهاية حصة القانون الدستوري رغم أن الدستور يخبرنا أننا مقيدين إلا أن حرية ملاقاتها فتحت كل نوافذي .لست بالمسرع لملمت سويعاتي الحالمة بها .كانت بلباس البارحة وزميلتها التي تشعرني أنها تحمل كلامنا . سلمت علي ورغم أني كنت أتمنى أن تخبرني بلوعتي .ولكننا تكلمنا كالعادة عن الدرس والأدب ومسرحية البارحة وكان الحديث طويلا كطول انتظاري ومرت المفردات بجنبي ولم تخبريني عن الصباح ...

لطالما شحذت منها الحب كالذي يحب الدين ولكن لا يعرفه بل يخاف منه .أسكنتني مساحة من الخوف من فقدانها باحترافية ولم تتحمل عفويتي دخول عالم لا مبالاتك .ولسخرية القدر بنا انتهت لتلك المسبحة التي تحملها بيدها لتذكرها بالشام .فعلا هي نفسها التي شدتني إليها أول مرة .

_ كنت بالسابعة عشر من عمري عندما دخل أبي ذات مساء وقد كانت نشرات الأخبار قد عُجت بمنية الرئيس المصري فتح المعبر .أبي

صاحب العزة الخرافية بالنفس والأنف الذي يشعرك أنه من أهل العراق وكوفية أبيه التي لا تكاد تنسل من رقبته .سمعنا دبيب حذائه وهو يلامس حشائش حديقة بيتنا الذي يقع عند منطقة المخيمات كما يحلو لأهل غزة تسميتها بالرغم من أنها تحمل هذا الاسم إلا أنها عبارة عن بيوت متلاصقة ببعضها مبنية بشكل فوضوي وبشوارعها التي لا تتسع لأكثر من شخص .فيمارس أهل المخيم التكافل مرغمين فهم يشعرون أنهم بيت واحد لا تفصله إلا جدران الغيرة العربية. كنا عائلة سورية ولسخرية القدر عشنا بغزة .بيتنا يقع وسط عدة بيوت لا أكاد أراه إلا عندما أمر سراديبا من الشوارع تشعر وأنت تقترب منها أنك داخل متاهة .ربما لن تصل إليه .وعندما كنا صغارا كانت تخبرني أمي كل صباح قبل الذهاب لمدرسة "الأونروا " وكأنها تلقمني نشيد الصباح "سمية " لو أردتِ الرجوع للبيت فعليك أن تجدي محل العم أبو رمضان ،وكأن محل العم أبو رمضان أصبح معلما يستدِل به كل أهل المخيم ،ولكن دائما ما كنت أسأل نفسي "وإن لم أجد محل العم أبو رمضان؟".لم تجبني أمي .ولم أخبرها بإشكاليتي وبقي محل العم أبو رمضان شامخا كمعلم حضاري نحبه لأنه يقودنا لبيوتنا .دخل أبي ذاك المساء ساخطا وعازفا على نوتاته المعهودة ليلعن سياسة أدخلتنا مفكرتها ويلوح "بفيتو " الحرية العابرة .أحضرت أمي وسادته ووضعتها برَوية على كرسيه الجلدي الكبير الذي يتوسط غرفة الضيوف

.أشعلنا مصابيح التصنت ننتظر كلماته التي تبعث بنا كل مرة لزاوية لا يراها غيره .وكان أخي سمير منتها لكل إيماءة يصدرها أبي. أخي سمير كان متدينا ككل شباب غزة الذين تمطرهم مروحيات الأباتشي بحب الوطن والشهادة .ويبحثون عن مدنية لتشعرهم أنهم يمارسون الوطن .لا يحب التحدث عن دواخله ومتخم بعبرات التحرر والدين والسياسة ولكن من النوع المتخم مجبرا ليساير شيئا ما .يشعر من يجالسه أنه يخفي من ورائه الكثير من الحكايا .فلا يتبنى الفكر الوسطي الذي نشرب قهوته مساء مجبرين .نهمه لتعلم الشريعة ومشكلة السويعات التي لا تسعه فهو يدرس الشريعة ويتتلمذ على يد شيخ المخيم ويقرأ الليل كله يشبه نهم الجائع عند بائع البيزا صغيرة الحجم فكلما ابتعت منه زاد خوفك من ثمنها .وبعد سخط كبير جره حصولي على منحة دراسية للجزائر وانتظاري عاما كاملا حتى يتحصل سمير على أخرى أخبرنا أبي عن موعد الرحيل من مخيم يحبنا ونحبه إلى عالم مغاربي وشعب يمارس الثورة ويتغنى بها .فقد اخبرني كتاب التاريخ عن ظفره باستقلاله عنوة ،وأخبرتني مذيعة الأخبار عن دماء سالت بشوارعه .وتكلم ابن عمي إنه بلد لا يجوع فيه أحد .

منحتك قلبي وكذا حب القهوة لأن بلاد الشام لا تؤمن بالمقاهي بعيدا عن درويش وحمله فنجانه بين جمله .كم أحببنا مقهى الأستاذ جمال كما كنت تصفينه .وكم كنا ننتشي أن لمسة أنثوية عطرته .سخرنا من كل شيء ونحن نحتسي ذكرياتنا معا ويوميات أقدامنا الحافية ومشاغبة الفصل وصمتك وقصاصاتي .

كان يوم أحد وأنا أقرأ مقالتي عندها فدخل شاحب الوجه حاملا جريدته الفرنسية كحمله مفردات زمانه .جلس على الطاولة رقم 13 وأنا أعلم أن الغرب يملك عقدة من هذا الرقم ولكن ربما هو لا يعلم .

وأشار بيده وقال : فنجان بني.

وبامتعاض وضع رجله على الأخرى ،لامس جريدته وهيأ نفسه لشيء ما .قَلبها وكأنه ينفض منها أكاذيب هو يعلم أنها لن تمحى من صفحاتها لكنه شيء يدفعنا عنده لنصدق أكاذيبنا .قرأ الصفحة الأخيرة منها واستغرق في تأمل عمود يكون قد أعتاد على قراءته أولا .

أحضر" القرسون" قهوته وشاركه دور الارستقراطية الذي يتبناه ،ووضعها على مهل .

ثم عاد لجريدته قال : . Merci"

تكلمنا أنا وأنتِ عن هذه الشخصية وأبديتِ تحفظك منها .

قلتُ: ما رأيك ؟

- أنا أكره هذا النوع من الميوعة الحضارية المصبوغة بالقشور.

- وماذا بعد ؟

- ماذا ؟

- أصبحت شيئا آخر يكلمني .أصبحتِ أكثر عمقا ولكن .

- لكن ماذا ؟

- لكن،أتمنى أن أكون مكانه .أتعلمين أن في بلدي وحدها الجرائد المتكلمة بلغة السطحية أكثر مصداقية من المتكلمة بألسنتنا .

- لمَ ؟

- لأن بلدي تتكلم لغة لا يجب أن يفهمها الكل ،فقط من يبحثون عن لغات أخرى نسمعها .

تنهدتُ واستغرقت في صمت كنتِ تعلمين معناه ولم تقاطعيني .قلتِ: دعك من هذا الآن .

- ربما الآن وفقط .

أتممت عمداً سويعات عملي ، هاتفت رئيس التحرير لأطمئن على مقالة الغد .طلبت تاكسي ،فجأة ظهر وكأنه قدري ,التاكسي الثرثار الذي أقلني البارحة وتحملت أحلامه وبطولاته وقصة ابنته التي لا تنتهي .دخلت شقتي ثم مارست طقوسي اليومية ،وأنا مبتل فتحت بريدي الالكتروني وكتبت كلمة "ربما ..." وأرسلتها .هي كلمة لخصت كل معاني الاحتقار والفوضوية والدهشة .

منهكا وبقايا الحسرة تؤلمني جالست أوراقي وكتبت عنها:

" الحب هو الجانب المخفي للوهم يلقي بنا عند عتباته ونمارس عنده كل ما لا نطيق ،تلهينا مدامعه ويسحرنا بعالمه الذي نضع نحن نوتاته .ينسينا كل ما يبكينا ونتكلم عنده بلا وشم يزعج هويتنا ونكفر بساعة اليد

.

فعلا تعلمت الكتابة على يديك وكنتِ ملهمتي وتتبعين رؤاي وتعتزين بقلمي .ونبحر معا بين روابي القصاصات .كتبت كثيرا لأجلك وكنت تعلمين هذا وكنا نمرر رسائلنا الموحشة وخوفي من فقدانك و غضبي منك هناك .كنتِ وقودا يؤجج نار عدم رضاك بي ..." وشتمتها ونمت.

فعلا مُتعب لأني كاتب وتأخذني كلماتي إلى حدود الجمال المنسي ويتكلم قلمي بلغة آلام الشعب .مُتعبون هم من يحلمون بعالم أجمل ويصنعون من أمانيهم المرسومة بأوراق أزعجهم بياضها . أو لكي يثبتوا لأنفسهم أنهم أبطال تلك الوريقات.مساكين حقا هم وأنا وسعيد وسمية وأنتَ يا من تقرؤنا الآن .يشعرون بذواتهم لأنهم يصنعون لهذا العالم الغاضب على عباده ذوقا رمزيا ليكملوا مسير خطواتهم المُتعبة بهم .يصنعون الأمل ويغرقون في سوداويتهم التي تصبغ شخصيات مفرداتهم ويضعون لفافات حزنهم عمداً لكي يدخنها المكلومون مثلي

أسمَعَتني خطابات الشباب المنمق وصديقي المتأثر بكل جروح الحرية التي بانت حينها أن ظلال شيء ما يُغنى عند الساحل السوري .وكانت تعجبني حلقات المتعطشين للفرح وهم لا يتركون للمساحات بينهم بداً من الصراخ .يعجبني دوران السوري راقصا ونسيم الأناشيد فوق رأسه ممسكا بسوريته بيمناه وسنوات قحط أصابت أحلامه بشماله وتدور روحه معه كدوران صوفي بلغ كل شيء ...وككل البدايات وأنا أهم بدخول مكتبة الكلية لم أجرأ على دخول وادك ذاك ،فقد عرفتك حينها بلا كلمات فكنت تلبسين كِنزة بنية وتحملين مسبحتك ويحرسك سمير .لم تتكلمي قط ولم أسمع سواك قط .

- لا أريدك أن تتشبه بكل الرجال الذين لاعبوا الحب الذي أخبرتنا عنه بين مفردات ملاقاتك بسمية ولا أريد أن أستعجل القدر .ولكن لا أريدك أن تذكرني أنني كنت موجودا يومها أو أنني صنعت منها شيء كنت تتمناه أنت ،فعلا ألوم نفسي لأنني وضعتها أمامك .لما لم أخط حينها فتاة تحمل حقيبة يد رثة وتضعك عند طبقات العاديين من البشر الذين يموتون وهم يتمنون الحب . ربما هو قدرك .

- لا تستعجلني يا رجل ،أنا كذلك صنيعتك والحب هو قريحتك فاتركني أتجرعه من فضلك .

-حسنا سعيد أكمل .

كان جونا مشحونا بعبارات التحرر وأوهمتني شاشة حاسوبي بأنه يمكننا أن نتكلم عنا بدون رقيب .فكان حبنا هستيريا ممزوجا بطعم آخر لم أعهده بقريتي ،وترامت كل العبارات الجميلة والرقة الشامية ومعاناة شعبها لتصنع منها آخر قلاع أفتحها ،كنت محبا بحق .أحببتك فعلا يا سمية ,أحببتك بصدق ربما.فكانت أيام هُيام تجمدت سويعاتنا أمامها .ولأن القدر يسوقنا إلى ما نهيم معه دائما ولأنني بارع في اصطياد الكلام .وعند مجالستي صديقي وسيم المحامي العاطل عن العمل وجلوسنا عند هوسه بأخبار

العباد وجديدهم سمعت منه أنه سرق بعض دقائق من أخيك سمير .فجمعت خيوط حياتك اليومية بمذكرتي وأقسمت أن أقترب منك .

وبعيدا عنك كنت أمارس كبريائي وحيدا ،دخلت الصف يوم الأربعاء بعد يومين من نشوة رؤيتك وأنا أدخن مرارتي لما آلت إليه البلد وباقتراب موعد انتخابي اكسبني عداوات عديدة ،تكلم الدكتور عن واقع الدولة المأمول وحياتنا الرديئة وشتم البلد ،فعقبت أن البلد يمكن أن تسعنا كلنا ،فثار بي وأنظار الطلبة تساند ضوضاءه التي ملئت تفكيرنا السطحي وتركتنا نحكي كوابيسنا نهارا دون أن نستحي من أحلامنا التي تراقبنا .فرددت حديثه أن المشكل نحن من نربيه بين أحضاننا ونفطمه لأنه لا يخدم مصالحنا .

فقال: يا ولد أنت لا تفقه أنها قد بيعت .

فرددت حديثه بأن تصفني بولد فهذا شرف لي أنني ولد تربي على حب وطنه .فاحترم مقامك سيدي .أما تجرؤك على بلدي فهذا مزايدة يجب أن لا نربي أبناءنا عليها أستاذي .

فثارت أعصابه وطأطأ رأسه وقال " ملأتم صفوفنا وجيوبنا وأحلامنا " فلنكمل الدرس .

وساد نوع من التوجس الذي تلفظه نوافذ الصف .ففهمت ساعتها أن الأستاذ حشرني بزاوية أمقتها وأمقت ساكنيها .وعند انتهاء الدرس وجدت نفسي محاطا بخوفهم واختفاء الأستاذ وأصدقاء جدد .بعث بي كلام الأستاذ إلى الخوف وألتئم عندي الفاصل بين حب الوطن وترحابه بساكنيه دون قيود .فعلا أكره ساكني تلك الزاوية من العباد ،ولأن الكتابة هاجسي ومرفئي كتبت على صفحتي مقالا مطولا أبرئ نفسي منهم وأفرغ جام غضبي على الدكتور الذي يعلمنا أن نكره كل شيء ،وبعد هاته الحادثة وبصوت خافت سرى بين الطلبة في الجامعة عني التقيت آنذاك بالطالب حمدي .

-_____

جالست واقعا جديداً في مجتمع لا يؤمن بالقيود ومتمرد حتى الثمالة ،يكره اليهود ويحبنا وينتشي بأرضي جمالا وعصبية وجهارا .لم استفق من غوغائية ذاك الشعور الذي تلبسني فمنهم من يبكي ويتمنى السير على أرض فلسطين ومنهم من يشتم تقاعسنا .ليست هذه المشاعر ما أخذني ولكنه الشعور بالانتماء والاعتزاز الشديد بوطنهم الذي أدهشني .وزاد نار حنيني لسوريا وغزة .ربما لم أكن فتاة مثالية كباقي عابدات البكاء ولم أكن متعربدة على القيود .فقط كنت أريد أن التقي بمن أحب وفقط ،رغم أني أقسمت ألاّ أحب .

-ربما تود أن أخبرك لمَ؟.ولكنه شيء موجع لا أود أن أتذكره ،فأنا فتاة تتسم بالحياء والعقل ولكن كنت مريضة بشيء اسمه الحب .فكان

جسرا أحبه وأعشق النظر من خلاله لباقي مدينة الحياة ولكن كنت مهووسة بهذه المفردة فعلا .أخاف الحب وأتمناه بشغف وأتلذذ بسماع خطاياه فأنجبت سفحا مفردة أخرى تخلع عني رداء الزينة الذي اتشح تسمى الهوس .أحب صديقاتي عنوةً، وأحب أبي قصراً وأحب زميلتي بالصف اختناقا.دائمة التفكير بالحب حتى غلبني . ولم يعد مكان له بقلبي يتسع له لأن كل الأمكنة متخمة به .

وعرفت بعدها من صديقاتي أنه يعشق القلم فتتبعت صفحته فهمست لي دواخلي أن أعرفه أكثر .لأعرفه فقط ,فأنا متعبة حقا بكل صفحات الغيرة وروايات النساء وعُقدي .ولا أريدك أن تعقب على عقدي .

- فعلا كنت سأسألك ولكنني استحيت منك .ربما لأن عقدك لم أصنعها أنا أو ربما لأنني أقحمتك بحبه فجأة .ولكنني أنا كذلك لا أفقه عالمكم .فأنا مثله أسكن عالما مغاربيا يزاحم الريبة والعبث ، أكملي سمية .

- سأخبرك ولكن .

-لكن ماذا ؟

- لا تخبره .

-حسنا .

فعلا أنا مريضة ،فعندما أجلس وحيدة مع أمي لم تخبرني معنى الحب ولا والدي ،ناهيك عن سمير الذي لا يفقه هذه المفردة .

"بعد طول صمت "....

-لمَ سكتي ؟

حسنا .أتعرف أنني وقعت في حب صديقتي بالثانوية وقبلها مذيعة الأخبار .لا أدري لمَ ولكن كدت أن أفقد إنسانيتي مع هذا النوع المتطرف من الحب .كنت مريضة بالنظر إليها ولا أستطيع مفارقتها .وافتعل الحديث لألقاها ...حقا كنت مريضة بصديقتي حتى وصلت للجزائر والتقيت سعيد .ربما كان حبه شيء آخر ينسيني إياها .

لن أسميه حباً فلنسمه شيئا آخر .

-فلتجعليني صديقك منذ هذه اللحظة سمية ولا تخافي .

مرت شهرين ونحن نجس نبض القدر ،يخبرنا أحيانا أننا مجرد مفردات تتراقص فرحا بأقمصتها الجديدة .وتارة أخرى يذكرنا بذئب أبناء يعقوب .تركنا شهرين كاملين لا نشعر فعلا من نحن .

لم أكن أهتم كثيرا ببدايات الحكاية إلا أن الستار رُفع وكل العيون تراها إلا أنا .دخلت الجامعة وأنا منهك بمصطلحاتي وفكري الذي يصفه أصحاب الأقمصة بالتنويري وكأنهم يعانون من المصابيح وكنت أنصت لصديقي وهو يتكلم عنها وأسرق نظرة منها وهي تتشح التنمق وسذاجة كل النساء التي أخبرتني إياها مكتبتي .

عند ذاك الحيز من الزمن مارست كل أنواع الكلام ،تكلمت عن الفكر ولم أغدق فيه لأن من يقاسموننا المعيشة منهكون بفوبيا الحماس السطحي .واستمعت للموسيقى الأندلسية التي تشعرني أنني أنتمي للهناك البعيدة .ورفعت محبرتي كثيرا وفكرت بغيرك طبعاً ولبست "الشالات "

برقبتي نعم هي مسألة أحبها أن أتشح شالا برقبتي لا أعرف لمَ .ربما لأن كلامي يخنقني فاخنقه .

وحاولت أن أزاوج بين محبوبتي التي تسكن الفناجين وسيجارة الحسرة ولكنني لم أستطع لأن التزاوج بعيدا عن كل الطقوس غير مستساغ عندنا .

سمية كنتِ امرأة عادية ككل النساء المغتربات ببلدي .عادية هي موسيقاك .تلبسين زي بنات جنوب لبنان وحِدة نظرهم وشفاهم ،ورأيت بعض ترنح بمشيتك وهالة خوف وتسرع .لطالما تظاهرتي بالتسرع وأنا أكلمك بحسابك وتغلقينه لأنه يخبرني بحب آخر تتبنينه .

ذاك الحساب المتخم بمفردات الغَزل والرسائل المغلفة بقصص الحياة بإحكام وبعض فوضى منكِ وغضب مني .تكلمنا عن تسميات أبنائنا وابنتي وتكلمن عن كذباتنا الصغيرة وأمي ورحلة الصف وصديقي المجنون .

كنتِ تهربين مني دائما .دائما الرجال يكونون أجرأ في الحب .ربما لم أستسغ ذاك الهروب منك وحسبته فعلا آخر غير الحب .

كنا نتكلم ونعشق الشعر والظلمة معا ونحب القهوة ونستفيق صباحا لننشر فوضى الكلمات .

-كم هو رهيب أن تمارس القلم وتصنع من أمنياتك شخصيات تبعد ذاتك عن ذاتك .ربما صنعتك يا سمية أمامه لتؤنسي وحدته وتستري حاجته للحب .وعدم فهمه لمفردة كانت تُعزف بينكما عمداً.أنا لا أُسمعك هذه النبرة لأني نادم ولكن ربما لا أود أن أرويها كاملة وكذا لا أود أن أتعجل لقاءكما ولكن فعلا أتعبتِني يا سمية وأتعبتني حكايتك مع سعيد .ولهذا أقول لكِ "آسف على الإزعاج " سمية .

-أنا مثلك ،رغم أنك لم تعتذر مني .كنت أرسم عالما يبعدني عن عالمكم المشوب بغبار عتيق وتافه .فقد كان عالمي عصبي بعض الشيء وأرى حكاياتي كأنها نهايات وأتحاشى البداية دوما .

دخلت وادها ذاك وأنا أرسم بطاقة معايدة جميلة بعنوانها وأستعير كل قصص العشق الصوفي .أتراني أخطأت لأنني لا أفقه بداية الحكاية بيننا

ووضعت تبرجا سخيفا على وجهها لكي لا أفقه كل منمنمات العالم السفلي التي تعيشه ..ربما هو القدر .

فعلا كانت امرأة عادية تسكن معهم هناك .أما أنا فقد كنت لا أحبذ الهناك التي تستعجلني أن أدخلها .أتراه تسترها وراء حبها للكُتب مثلي وقلم استعارته مني ذات مساء وتتبعها صفحتي أسكنني مساحة من الخيال .وصنعت منها فصلا دراسيا قاسي بحياتي المتخمة بالأحداث.

فكان نصفي عربي والأخر بربري فكتبت بقصاصاتي حب العرب وأسواقهم وحريرهم وعبلة و بثينة وأقحمت سمية .ونصفي كان بربري يعبر عن مشاعره بانفعال وكل شيء يأخذه عنوة ويعاند القدر وينتظر بوليصة تأمين حياته ويعشق بعنف .ولكن كانت تسكنني ذات ثالثة لا أعرف مشاربها هي ذات الصوفي الذي يعشق الرومي ودراويشه .يرى الكلمات ويتكلم لغة العيون .ويسكن الآخر ويحبه ويجلس كل مساء منتظرا نور الله يتسلل لبصيرته .يمر متثاقل الخطى نحو اللاشيء ولا يرتكب الخطايا ويبكي عن مولاه .

أتذكرين سمية عندما حملتِ لواء الخوف مني .وأصبحت عيناك تهربان وجسدك الرطب يتحاشى ملاقاتي .هي هالة تملكنا كلما أبينا أن نذكر مفردة الحب على مسامعنا . أصبحتِ أكثر نفورا وتتعمدين المشي مع

زميلك بالصف بغياب سمير و أراك وأنت تتصنعين الحديث وتختلقين القصص المملة لتملئ ذاك الحيز من الخوف .وبما أنني أرى الكلمات فقد أيقنت أنك لست لي .كنتِ لئيمة ....

ألم أقل لكِ أن الحب لا يمارسه الجبناء ولكن أبيتي إلا أن تحشريني إلى البعيد المخيف .ولما كانت كلماتي تفضحني كلما مررت بمريدي التصنت ،كتبت كثيرا عن حبنا ومشاعري وتستَرت بعض أحيان بقصص الرهبة .فلم أكتب لكِ فقط فكل الجميلات يحببن الكلمات التي تغازل أنوثتهن .لم أرك أنثى قط فمفاهيم الأنوثة مختلفة عند حدود التكية التي أسكنها .فجسد المرأة ملك لها تأخذه معها لحمامات النساء دون أن يغضب جدي .وتخفيه عن أبي وتدورين به إعجابا بمرآتك التي تصغرك عامين .تكلمنا عن كل أنواع الحب .وكنتِ تمررين ورقة الجسد أحيانا ولكن اعتبرتك فعلا فكرة رسمتها الكاتب والحالم الذي يسكنني .وموسيقى جميلة لا تلامس غبار الحي وتضع ربطة عنق لتشعرنا صغار .

-ألا تعتقد أنك أثقلت علينا قليلا سعيد

-أنتَ لا تعرفها ....وربما أنا كذلك يا هذا.

-ربما ...ربما لم يخبرني سعيد بين تسابيحه عنها إنه يحبها.فكل قصص الحب تنتصف بالبدايات وتزعج مفاهيمنا البريئة وبعض وريقات لُقمنا أنها حب .فتركت مقعدي وظلمة الليل واختنقت فاقتربت قليلا من مكتبتي التي لم أقرأ جلها فهي مجرد تبرج يدخلنا عالم القلم لأنني كنت أكره الكتب رغم رواية " سيدة المعبد " هي الرواية الصغرى بعد اثنتين كتبتهما ولم أسكنهما .فالكتب وأفكارها تجعلني ألقي بدلوي ببئر الحظ الذي تناسته سويعات الألفية الأخيرة وألعاب ابنتي .وتفاجئنا أحيانا أخرى .ساد جو من الاختناق الغرفة أو ربما كان بسبب رائحة الدهن الحديثة أو هي كلمات سعيد من أزعجتني .فتحت الفرندة ورفعت يدي لأحمل القدر الكافي من الحظ فرأيت القمر .فتذكرت سمية فهي تعشق القمر بغزة ،فليالي غزة الحالكة وحُبكهم التي تخاط بالظلمة وكلامهم الخافت لا يفضحه إلا القمر .فهم يعشقونه ويخافون منه ويشعرون أنه قريب منهم دائما وكأنه ملاك حارس لأهل غزة ولبيت سمية خاصة.لطالما حمَلت سمية كراستها وبعض أقلام ودنانير معدنية قديمة هي تجمعها لترسم .فتجد دموعها كتبت شيئا ما عن فارس أحلامها وتوجسها من السنوات الأولى للحب وفي الأخير عندما تبرد تُقبل قطعة نقدية معدنية وتلقي بها نحو القمر وتجري .وفي كل مرة وقبل الولوج لغرفتها تسمع أوراق أشجار الزيتون بالساحة تهامس بصوت عالٍ لترد سلام القمر ثم تسمع نحنحة أبيها فتبتسم وتنام ....

سمية ربما أحببتك بظرف كدت فيه أن أفقد ذاتي ،فكل الناس الذين أخبرتني بهم الحياة كانوا لا يفهمونني ،فتسترت أحيانا كثيرة بالرجل البسيط المحافظ على القدر الذي يسمح لنفسه أن تذكر بخير وضحكت عمدا لأوصف بالطفل وبكيت ليلا لأشعر بالعابد فيا . كنتِ حِجر أمي الذي أضع عنده جميع أثقالي كومة واحدة وضحكنا معاً طفلين في نشوة الطيران .وبكينا خوفا ورهبة ولا طالما أبكتنا غزة .كسرتِ جميع أسواري وبقيت عاريا أمامك .ربما يلزمنا أن نتعرى أحيانا لنشعر بالحرية المفرطة .التي تبتلع جميع التبرج المحيط بنا ...كنتِ لا تضعين التبرج كثيرا وهذا ما يعجبني ببنات الشام .يعجبني حقا التباعد البائن بين جسمك وطولك اللذان يتناسبان كسمفونيةِ لموزار .وسلسلة الفضة التي أهديتك إياها والتناغم بين ابتسامتك وعينيك اللتين تغمضينهما وأنت تضحكين .سمية كنت أحبك بشراهة وأحب جسمك وأطوارك الغريبة أحيانا

-صديقي سعيد ...أنا كذلك أحببت ذات مساء ولكنني كنت جبانا لم تسعفني حقيقتي لأعبر عن مشاعري أمامها .ربما أنا مجرد كاتب يحمل حقيبة جلدية وسروالا مكويا جيدا وقميصه الزهري الوحيد. فكل الخرافات التي استعرتها من الكتب ورسائل العشق التي أكتبها لزملائي بالجامعة وأمسيات الشعر وكل الفتيات اللائي يعشقنني لم تشفع لي أمام جبروت حبها وسطوته .

سعيد سأجيب على تساؤلك بخصوص ال"ربما" التي استعملتها كثيرا بين يومياتك .نعم سعيد كلمة الربما هاته هي من تركتني أعيش لألقاك .هي من جعلتني أنتظر باص رحيلها ولا أودعها لأنني ربما أحببتها ،ربما لا .سعيد فعلا أنا لا أدري أتراها هي الشيء الوحيد الذي أحببته وكان دافعا لأن أحرق كل تجاربي بعدها مع النساء أم أنها مجرد فتاة ككل النساء اللاتي يسكن هذا العالم المليء بشركات التبرج .

سعيد هي كانت تخافني كخوف سمية وتبتعد عن عالمي معظم نظراتها أو أنتظر سأصدقك القول لا بل أنا من كنت أخافها .لأنني كنت أخاف الحب في حد ذاته وأستحي من مفردة شُبعت بها حتى ظننتها غير موجودة إلا بالكتب .تغيرت معاملتي لها حتى أزعجتها فخافت أكثر .

سعيد سأغادر الآن لتكمل ذكراك مع سمية .وأحاول أنا أن أرسم باقي حكايتكما معا .

بعيدا عن سمية والكاتب الذي أسكنني هذا الحيز من الحكايات والتي تُشعره أنه تملكني أو ربما كما يقول هو أتخذني صورته الجدارية ليؤنس الضفة الأخرى من الهناك الذي يزعجه .كنت أشعر بالخوف وحدي كطفل يختبئ بخزانة جدته لا لشيء إلا ليشعر أنه شيء ما بهذه الظلمة ،ينتظرها ليخيفها وعندما تتزاوج تثاقل خطاها وسويعات الدهر وتطول مدة مكوثه هناك .يبكي ،يبكي كثيرا .مثلي أنا وأنتَ وكل الخائفين من مفردات نصنعها أمامنا ثم تُبكينا .

أتدري أنني لم أرَ دموع سمية قط .فقد قالت لي ذات مساء أنها مستحيل أن تضعف وتبكي فالبكاء عندنا نحن أهل غزة اتخذ سبيلا آخر فبعدما نضبت عيون العجائز أصبح الدمع يهابنا وأتشح لباس الجندية كباقي المجاهدين وبات يحارب من أجل أن لا نبكي .فلا مكان للبكاء بأفرشة الأزواج ولا ركام منازل المخيم ولا بين عيون تكره العدو .أما سوريتي فتبكي ،ثم غلبتها دموعها وبلمسة جرأة مددت يدي لمقلتيها لأمسح الدمع فلم أجده .

سمية ربما بحثت فيك عمن يشبهني فنحن نفني العمر وسويعاته ونستهلك أحلامنا في البحث عن تؤم أروحنا ونترجى القدر ودعائنا في رزق يشبه ما تحويه سِلالنا ولكن لما تضيق رؤانا ونحن نتمنى اللاشيء الذي نتمناه نبكي مثل ذاك الطفل .أتذكر أنني بحت لها بسر ذات مساء ممطر عندما كنت أريد أن أستثير لغة الغيرة عندها

- سمية أنا أحببت قبلك فتاة كانت ...

-كانت ماذا ؟

- كنا نتخاطر بلغة غير التي أُسمعك إياها الآن .كانت مثيرة ومتمردة ولا تستحي الكلمات بيننا أن نتكلم عن كل شيء ،عن فتاة الحانة وعن شَعرها وعنفوان المرأة والسرير .كانت مختلفة .آن ذاك عشقت التمرد معها وكنا نمارس الكلمات ولا نضيف استعارات تجعلنا نتخذ الشوارع الجانبية للحب .ونستفيق صباحا لنستحم . تُشعرني أن الحياة خلقت لأمثالها وتقشعر من مفرداتي وربطة العنق .

ربما الاختلاف الذي شعرته معها والجموح كما كانت تصفه كان يشعرني بالفوضى اللذيذة التي لا نفهمها ولكن نستلذ بممارستها كالجنس

لأول مرة .وكانت تقول :" إن الحياة خلقت للجامحين والمجانين فلا تكن أحمقا واتبعني " .

أحببت فيها جموحها وخوفي وبراعتها في الكتابة وقَوامها .لمَ تخوفوننا بالقَوام ! في حين هن يستهلكونه بأعراسهم وبال.... .

كانت فتاة بارعة بالتنمق واختيار الحروف والكُحل ..تكلمنا أنا وسعاد عن المرأة العاهرة بالأدب وأنصفتها وتكلمنا عن اغتصاب الأحلام ورذيلة التبرج المجتمعي .كانت لا تؤمن بالأعراف وتسألني من أين جلبت هاته المفردة اللقيطة ،أليست صنيعة بلداء مثلنا وتضحك كثيراً .تمتلك ضِحكة لا تؤمن بالسماء .كانت تشبهك سمية .

- ماذا قلت؟ (بامتعاض ممزوج بغيرة).

-قلت كانت يتيمة تعيش مع أبيها العم حسن ولكنه كان رجلا ظل يشتغل دوامين براتب واحد ولا يخرج من البيت البتة .ويقتات من العار .نعم العار من نفسه ،فقد وجد زوجته خالتي صفية على روحها السلام تخرج من أحد الدكاكين فاتهمها بالخيانة ...وماتت خالتي صفية قهراً وخجلا من العائلة .أما هو فقد ماتت روحه وظل منذ ذاك الزمن تتراوح حياته بين

الشك ومخافة الظلم .ربما كنت أحمقا آنذاك ولم أتبعها وسمعت أنها تزوجت من الرجل المحترم بآخر الشارع .

لا أود أن أخبرك عن كل الحكايات فأنا التائه بين كل النهايات .فأنا لا أشعر أنني أعيش معهم هنا وأتمنى الهناك البعيدة .

عندما أكتب تتطاير الحياة أمامي وكأنني أنا الوحيد الذي يحق لي أن أكتب وأصنع شخصيات من ورق وأسكن رواية أكتبها الآن .دائم الإحساس بالغربة من هنا وأحلم بفتاة لا أدري أتراها تحبني أم لا ...وأقضي وقت الظهيرة منزعجا من أحلامي التي أحرسها عنوةً.وأوهم نفسي أنني أحلم ....

أحلم بماذا ؟

لا أدري أتراه هو مجرد هروب أغتصب عنده الورق .وأسكن حكايات سمية وسعيد .

ربما ...

المشهد الثاني 2.

" يا غصن نقا... "

" بالرغم من أنه لا يُمكِنُ أن نعود إلى الوراء لنصنع بداية جديدة إلا أنه يمكن أن نبدأ مِن الآن في صناعةِ نهاية جديدة." - ماركوس أوريليوس.

دخل المقهى ولم ينتظر النادل .واقترب من العامل وقال :

أتمنى أن تسعدني بفنجان كالعادة. قطب النادل حاجبيه لأنها المرة الأولى التي يعرف فيها هذا الشخص المنمق .فجُل رواد المقهى ممن يصارعون الحياة .فمعظمهم من النقابيين لأن مقر النقابة عند الشارع المقابل أو ربما تكتظ بالجماهير زمن المباراة أو يخيم عليها السكون وعاشقين بعد

الظهر .أمسك الفنجان بيسراه أما الجريدة فقد تأبطها .وضع الفنجان أمام الكرسي المقابل له ثم أذاب ثلاث قطع ونصف من السكر بقهوته التي تشبهه .وعاد لجريدته يقلبها .رن هاتفه الذكي فرد بعنجهية وأنهى المكالمة .ظل يحدق بالفنجان مليا .ثم أمال رأسه للخلف وهو يخرج نفسا عميقا يكاد بشعر كل من هو بالمقهى بكمِ الفوضى التي بداخله . ثم أخذ ورقة صغيرة من جيبه، وخط شيئا ما، بعدما وضع ورقة نقدية بجنبها ثم غادر. اقترب النادل وامسك الورقة والنقود ثم تغير وجه النادل وقال : هذا سعيد سمعت عنه من قبل ،ما زال يحبها . ثم ابتسم و طوى الورقة وواصل عمله كنادل يجمع أوراق الذكرى...

كان الوضع العام لا تستريح له كل أحلامنا وكثر عرابو الخراب أو ربما هي موجة سخط اجتاحت أذهاننا لأنهم سرقوا كل سِلال الصباح. علمونا ونحن صغار أن لا نظهر خبز الفسحة لكل الأطفال فهناك الجائع والغني والفقير والمدرسة ومن يسرق عنوة طعامنا .علمونا أن نخاف ونأكل لوحدنا. وساد جو من الإنسانية المسروقة و هالة كبرى غمرتنا فالكل يردد أناشيد الثوار بسوريا ويلعن التدخل الأجنبي ببلد مجاور وننتظر الفرز بمصر. ونشرب قهوتنا عصرا.

كنا نتابع الأحداث المتسارعة كتسارع حكايات جدتي ولكن بالرغم من أن أصدقائي كانوا ينعتونني بالناشط الحقوقي إلا أن تفكيري بحبها الذي سلب مني ذاتي لم يتركني أعاشر الأحداث كاملة. .أتذكرين لقائنا ذاك عندما نزلت من إلقاء قصيدة لي تحمل مسميات الحب والغربة. وتقدمت نحوي بضع خطوات وبابتسامة مشرقية قلتِ:"كم أنت ملهم" . كنتِ تختارين ألفاظك بعناية شديدة ولمست صوت فتاة الأَرز بلكنتك .تلعثمت وأنا الشاعر والماجن بكلماتي .تلعثمت لأني كنت كل صباح أتدرب على "بروفا" لقائنا الأول .فقد تخيلتكِ تقتربين باستحياء ولا تتكلمي وأنا أبادر بالكلام .كما تخيلتك تشتمين وأنا أرد ،تخيلت كل شيء إلا أن تكوني جريئة بالقدر الذي يمنعني من الكلام .

أنا لست ملهما سيدتي بل أنتِ الملهمة والواضحة والجريئة والطاغية على زمني ،ثم غادرتِ وتركت شدى كلماتك يزعجني. فلنلتمس عذرا لسويعاتنا التي تحرسنا وفقط . تسارعت الأحداث وكان لقاؤنا حتمية يخاطبنا عندها القدر ليخبرنا أن الحياة تتسع للكثير من الحلم .لم أتوانَ في فتح حسابي بالليل ومباشرة حكاياتنا .أرسلت سلاما محترما يخفي ورائه كل القصص الشاردة، ورفعت ستارا متسرعاً قبل أن تكتمل صالة الحب .لم تردي بالحين وكنت أنا ألعب دور المنتظر ،بعد ربع ساعة شعرت برسالة كنت موقنا أنها منكِ لأنني ببساطة أود ذلك .

وباستغراب مغربي يشك في العلاقات السهلة ممزوجا بلهفة. بدأنا لقاءاتنا المكتوبة .وكنا نمارس الكتابة بيننا باستحياء فتكلمنا عن كتبك المفضلة وعن حيك بغزة واعتزازك بسوريتك.

وأرسلت لي بعض خواطر كنت تكتبينها ,لم تكن بالمستوى العالي ولكن من يدك كنت أراها رونقا يضفي ملامح مشرقية على عالمي المغاربي الجلد. تكلمنا عن أخيك سمير وفهمه للدين وكيف كان قاسيا معك ...تسارعت بنا الأيام وكنت أنتظر موعدنا الليلي وعندما تغيبين كنت أسارع لرسائلنا القديمة وأعيد قراءتها مرارا لأتشبع من كلامك .حقا كنت زهرا بيلسانيا لا ينتمي لكل الحدائق.

أحبك ،نعم أحبك ومازلت أحبك وأحب أشياءك الصغيرة ونظاراتك الطبية وحقيبة اليد .وعندما كنت أراك يكاد قلبي ينتزع من مكانه .أشعر وأنا أمامك بالضعف وأصير طفلا ساذجا لا يفقه العوالم...

أحب خيالك وابتسامتك الخجولة ...

ربما أختلط حبنا بمعنى الحرب فكان كلامنا عن خطاب الرئيس الأمريكي وضربات النظام بالغوطة وحُب الشباب بغزة. وخلقنا معنى مغايرا للظلمة فنرى المعاني ونستنزف كل المادية التي نرى. تكلمنا عن كل شيء وناقشنا معنى اللاشيء أيضا. عشقنا المسرح معا وكنا نخطط أن نكتب سيناريو مسرحية وعشقنا شكسبير وجعلناه ملهما كدرويش ونزار.كان

حسابانا لا يؤمنان بالقيود ويخطان شيء ما بيننا لا ندري ماهيته ولكننا كنا نصبو إليه ونخافه ...ونتراسل عنوة وفي آخر الليل استنطق أنا عصارة أحاسيسنا إلى خواطر على صفحتي، ففضحت كلماتي ما كان يدور بخوالجي .

أتذكرين عندما أرسلت ملصقا رومانسيا وأوهمتك أنني أرسلته حظا ولم تستسيغي هذا التصرف مني وضللت ليلا كاملا أراسلك وأنت لا تردين ...نعم هي مساحة الصمت التي تصنعت والتي تحمل كل المعاني بما فيها خيالاتي السوداوية . كانت الرسائل بيننا مورفين يوم كامل وتمنحني حياة مدتها تبتدئ منذ استيقاظي صباحا وتصفح رسائل الليل وفاعليتها تنتهي بلهفة انتظار رسالتك الجديدة . راسلتني ذاك المساء من شهر آذار كغير عادتك عند الظهيرة .ودخلت حسابي لأجد رسالة منك تقولين فيها :"سعيد (رغم أنك لم تدعيني بسعيد قبلها وكنت تناديني أخي أو كاتبنا) أخي غادر ولم يخبرني" .

_أين؟

_ لا أدري .ربما لغزة ولا أريد أن أخبر أبي فلربما لم يذهب

_سمية هدئي من روعك سيرجع.

_ لا سعيد فقد اخبرني أصدقاؤه انه اخذ أغراضه وحقيبته ولم يترك شيئا بالغرفة. قلت : ربما سئم منكم.

_ سعيد أنا لا أمزح الأمر جدي.

_ سمية أريد أن ألقاك

_آآآه ...ربما غدا.

لم أنم ليلتها وكان خيالك وأول لقاء بيننا ونخوة أنك أخبرتني تزعجني وفي الصباح تنمقت ووضعت قليلا من عطر زميلي بالغرفة واتشحت الهلع ومشيت لأنني كنت أود أن أتكلم مع نفسي بالطريق. ثم انتظرت خروجك من الصف بمقهى مقابل للكلية وقرأت كل الجريدة وتحاشيت صديقا كان يود أن يجالسني . لمحت خطواتك المتسارعة وأنت تقتربين.

_أهلا سمية .

_ كما قلت لك أخي سمير غادر ولم يذهب لغزة لأنني تكلمت مع أهلي ولم ألمس تواجده هناك ،أنا جد خائفة من مغادرته .أرجوك سعيد ساعدني أشعر أنه أصابه مكروه.

_ سمية لا تخافي انتظري مني ردا سنجده بإذن الله لا تخافي فعلا كاد قلبي يخرج من بين ضلوعي وأنتِ تتلفظين بتلك الكلمة ومدامعك ترهقك .كنتُ مثقلا بدور المرفأ الذي حملتني إياه ثم غادرت بنفس الروح المتعبة التي جئت بها .فرجعت لفنجاني وهالة من الذهول تملكتني بين واجب عروبي و نخوة رجولية وبين حبك الذي اتخذ منحى آخر .ولم أفكر

إلا بالطالب حمدي فهو يتبنى الكثير من العلاقات مع عدة جهات. فاتصلت به وسألته عن سمير الغزاوي .

فقال : نعم أعلم أنه غادر ولكن إلى أين بالضبط تحتاج وقتاً لأخبرك.

_أنا حمدي ولدت من رجل يعمل بأمن الولاية ،كانت أمي الزوجة الثانية ولكنها ماتت قبل أن أعي هذا العالم المتسارع .فتزوج أبي من امرأة أخرى ففتحت نوافذي على زوجة أب.

كانت حياتنا مملة إلى حد كبير لا أرى أبي وزوجته إلا وأبواب غرفة نومهما مغلقة. دائما كنت أتظاهر بمشاهدة التلفاز وأسمع لحظات السكون بينهما وأستعمل مخيلتي عند ذاك الحيز من الصمت .ولكن ككل مرة لا تكاد تمر نصف ساعة حتى تنشب سمفونية من الكلام البذيء وكل أنواع الشتائم بينهما وفي الأخير كالعادة يخرج أبي وكلام خالتي تلاحقه

وتشتمه ولكن لم أع آنذاك لم دائما تنتهي هذه المعركة بانهزام أبي وهروبه ؟

توالت السنون و أصبح أبي يغيب مرارا عن بيتنا وكانت خالتي تبعث بي للشارع أو تهم بضربي لا لشيء إلا لتبقى لوحدها بالبيت. فكنت أرى رجلا يدخل عندها وعندما يخرج تناديني " يا بن الحرام تعال" فأدخل وأنا مستاء من معاملتها وكانت همسات أصدقائي تقول :" يا ابن العاهرة "، كنت أحسب على خالتي رغم أني لست ابنها ولكن لم أكن ككل الرجال الذين ينزعجون من هذا الوصف لأني أراه من منظور فتحة الباب بين أبي وخالتي وهم يسمعون عنه فقط. ورغم كل هذا وكل هذه الهالة من القرف التي تسكن بيتنا إلا أن خالتي كانت تحرص على دراستي وهذا هو الشيء الوحيد الذي كنت أشعر أنها تبارز طموح أبي بجعلي رجل أمن .لا أخفيك سراً أن وصف ابن العاهرة أهون من لفظ يتيم. فابن العاهرة لفظ يداعب فينا غريزة محبوبة مجتمعيا نتلفظها لأن معظمنا لا يستطيع ممارستها بكل حرية فنتوارى خلف حروفها لنُشبع حاجتنا إليها .أما لفظ يتيم فهو مقرون بالضعف. فنادني ابن العاهرة ولا تجعلني أكرهك. كانت قصص خالتي وأبي لا تنتهي حتى جاء يوم غير حياتنا ففي ليلة خريفية ومع بداية موسمي الثاني بالجامعة وأنا منتش بحريتي من سطوة خالتي وهوان أبي تفاجأت بخبر فضيع وهو أن جماعة ترصدت أبي وهو راجع من العمل ليلا وصدمته

بسيارة فأُدخل المشفى واضطر الأطباء لبتر ساقيه. فطبيعة عمله أكسبته العديد من العداوات وكانت له علاقات متشعبة مع مافيا العقار و المال ببلدي. ناهيك عن خلافاته بالعمل. فمكث ستة أشهر وهو لا يستطيع الكلام وبغيبوبة تامة وبعد مدة من التأهيل النفسي. بات أبي يمارس طقوسا خاصة به منها أنه بعد دفن ساقيه بمقبرة بعيدة بات يزورهما كل أسبوع ويمكث يبكي بجوار القبر الذي خصص لهما ولكن وفاء جسده لرجليه لم يدم طويلا فقد أوصى أن يدفن بجوارهما وكان له ذلك بعد عام ونيف .

وأصبحت خالتي تمارس عادتها جهارا وكنتُ أنا أقضي بعض الوقت معها بالعطل. فكنا نقضي أيام الإجازة ككل العائلات نحضر الطعام ونتكلم عن الذكريات ونمارس إنسانيتنا المسروقة بشكل مفرط لتنسينا أننا ضحايا سويعات القدر ولم نتكلم عن أبي ولا عن يومياتها وآخذ مصروفي وأغادر .

-لمَ صمت الآن ؟

-لأنني انتقمت منها ووضعت كمية من الممنوعات ببيتنا وحبكت قصة متلازمة مع دخول رجل كان مسؤولا بعمل والدي وأدخلتهما السجن .

- وهل شفيت غليلك ؟

-ربما .ولأنني أيضا أصبحت حرا من كوابيس ساقي أبي التي لم تتركني أنام.

بعدما سئمت أوراقي ومكتبتي وعالم لا يفهمني صعدت لسطح منزلي أنظر مليا للقمر الذي أبى هذه المرة أن يعاندني ولا أحمل غير دموع تخنقني لأني شاركت اليوم بجريمة ورفضت قلبا يعشق ابنتي لا لشيء إلا لأني لا أرى واقعي من منظور ما أكتبه .أتراني كاذب بقلمي وعن مضض كتبت: " سمية أنا لا أعرف حقيقة مشاعرك تجاه سعيد ولم تختمر حقيقة مشاعركما بخيالي بعد ولأني خائف أن أدخل حيزك ذاك ويهيم قلمي بخطوط جمالية يقف من يقرأ روايتي هذه أمامها مدهوشا وألاعب ذاك الفراغ الذي يتمنى كل قارئ ملأه .وفي الأخير عندي أشعر بالخزي أمام روحي. سمية ساعديني أن أجد نفسي ولا أجرحك كما جرحت ابنتي اليوم فهي بنفس سنك تقريبا ".

ثم مزقت الورقة لأني جبان وكاذب ولا أود أن أخبركم عن واقع يسكنني هنا بعيدا عن الورق . ثم رجعت لورقة بيضاء جديدة لأخفي كل أكاذيبي هناك .وأواصل حكاية سعيد وسمية بعيدا عن حماقاتي.

أتخذ حبنا مسرى جديا فلم أعد سعيد ذاك العاشق البدائي الذي تحركه أبيات شعر و أمنيات .وفجأة أصبحتُ المنجى والملجأ والمسئول عنها وكان واجبا أن أرد على سؤال غياب أخيها غدا . راسلتها ليلا لأطمئن عليها رغم أنها لم ترد على رسائلي إلا أني اتصلت بها صباحا رغم أني لا أملك أي جديد ولكن بمجرد جلوسها معي ومحاولتي أن أهون موقف غياب أخيها وبتنا نلتقي يوميا لأنها تود ذلك كمعنى آخر للحرية والبحث عن ملجأ كما قالت. وأنا بصدق ألعب دور المسئول عنها. وبقية الأسبوع اتخذناها عزلة

اختيارية لأننا خفنا. وبداية الأسبوع اتصل بي حمدي ليخبرني أن سمير غادر لليمن.

اليمن وللوهلة الأولى ومستندا على رسائل سمية لفهم شخصية سمير أيقنت أنه ذهب لجبال دماج ليغرف من الفكر السلفي الذي يتبناه .فكيف أُخبرها عن وجهة سمير و لربما تغادر هي أيضا. أتراها فرصة سانحة للاقتراب منها أكثر ؟

لم أكن بهذه النذالة فلا تبتعد بفكرك أكثر . وبت ليلتها مستيقظا أفكر كيف ستكون ردة فعلها وكذا ردة فعل أهلها وهل أنا مستعد للعب دور السند لا الحبيب لا أدري .

خرجت من غرفتي، الرواق فارغ تماما وصوت النافذة المكسورة يضفي نوعا من الهلع للمكان. توجهت صوب الساحة وتحت شجرة صنوبر نحب أن نلجأ إليها عندما تضيق بنا الغرف. محتميا بمعطفي وتدفئني حكاياتها التي تجول بمخيلتي وخائف.

_ سعيد أتسمح لي أن أجالسك ؟.

_ ربما أنا محتاج لهذا تفضل.لمَ فعلت هذا ؟.

لما تعذب محبوبتي هكذا ألا تحبنا وصنعتنا بين أوراقك ؟. ألسنا نشعر مثلكم ؟

_انتظر على رسلك سعيد .هو القدر يا سعيد فأنت لا تعرفه لأنك لست مثلي .

_ربما قدري تصنعه أنت بهذا الحيز الضيق من الورق ولكن رفقا بي يا رجل لمَ هي ؟

أجعل سيارة مسرعة تصدمني وأدخل المشفى لو شئت ولكن لا تجرح حبيبتي سمية .

_سعيد لا تخف لعله .....

_أأعتبره وعدا .

_أنا لا أعد شخصيات روايتي .إلى اللقاء سعيد .

_لمَ حضرت إذن واقتحمت خلوتي أنا لا أريدك الآن .ولا أريدك أن تكلمها أيضا .أفهمت .

وبت وحيدا أفكر في سمية وكيف ستتلقى نبأ قرار أخيها. وهل قراره صواب من منظروه الذي يرى العالم منهارا أخلاقيا وبقيت أفكر حتى نمت بالحديقة. وبعد ثلاث ليل أخرى اهتز البلد بخبر مقتل صحفي بالعاصمة لم يكن بالصحفي المشهور لأن جرائدنا لا تؤمن بالشهرة فهي محلية نحتاجها يوم تنظيف الزجاج، ولكنه كان يكتب عمودا يوميا بإحداها وأصبح موضوع مقتل الصحفي كلاما نلوكه نحن أوساط المثقفين فمنهم

من اتهم الحكومة ومنهم من اتهم مافيا العقار ومنهم من لم يعر الموضوع اهتماما وباقي الشعب بدأ يشعر بالخوف.

كان يومي لا يخلو من زيارة سمية حتى أصبحت أنا وهي نتكلم عن الصحفي المقتول أيضا وتشاهدني من بعيد وأنا أقود مظاهرات الطلبة المنددة بالواقع المزري وابتسامتها ترجع الحياة لعروقي رغم أني أصرخ غضبا وحبا وحلما... بعد مغادرة أخيها الجزائر واختياره طريقه تركنا عرايا. فلسنا بطريق الحب الاعتيادي وقصصه التي اتخمت بها الروايات الأكثر مبيعا بعالمنا العربي كمولعين يحرقان كل المواعيد وننتشي بإيماءات الحب ونكتب عنها ، ولا غادرت هي معه وانتهت قصتي واتخذتُ من قصصنا حطبا أُشعل به قلمي. فاتخذت حكاياتنا طريق آخر لا يؤمن بمسلمات الحب ولا بلوعة الفراق .هو الطريق الثالث الذي يأخذنا نحو ما لا نعلم .هو نوتة نشاز باوركسترا الحياة نشعر بها ونحن ندندن مع اللحن العام ...

انتابتني هلع وأنا أرى حبي الذي طالما رسمته بأشعاري يتحول وبدون أن يُخبرنا إلى واجب. واجب أملاه علي الطابع المغاربي الذي يسكنني فنحن في الجزائر لا نعبر بسهولة عن حبنا ولكننا إذا أحببنا أحداهن نود أن نملكها. نعم هي عقدة تَملك اجتاحتنا ونحن نتملك أرضنا بعد مئة وثلاثين عاما من الفراق .نعم نحن مرضى بالخوف من الفراق، فحين يحب الجزائري ويود أن يعبر عن حبه لإحداهن يقول لها "بلاك تفارقيني " بمعنى

إياك أن تفارقيني. فهو يعبر عن حبه لها بخوفه من فراقها له. هي معادلة حب لا يفهمها إلا جنس بشري ولد بتزاوج الأمازيغ وحدتهم وثباتهم وبين أخلاق العرب.

نعم هو واجب يا سمية، تختلف مسميات الحب فنجد حب الواجب وحب للذكرى وحب شفقة وحب تأدية طقس من طقوس العُرف وحب جسد ... وحب لا ينتمي لكل هذه الأنواع وهو غير موجود إلا بوريقات الروايات. هو حر وعنيد نكتب عنه لنبرأ حبنا من صفة ما اقترنت به نخاف منها. نصبني القدر وبطبعي هذا المسئول عنكِ كمن يتزعموننا ويخطبون فينا لأن طبعهم يخبرهم أن من واجبهم أن يكون هناك مسئول عنا. وأمضيت أوراقي كاملة لأني أحبك.

أتذكرين سمية يوم بحت لكِ بضعفي وكانت قاسمة بالنسبة لي. لأول مرة أبكي أمامك لأن حبي لك رغم عدم البوح كان جارفا. جرف معه كل كبريائي وكل الأوجه التي كنت أتشحها وسلب مني حريتي.

اجتاحتني هالة ضعف أمامك، نعم أسميها ضعفا لأننا بالجزائر الرجال لا يبكون أمام النساء وإن كانوا يحبونهن وشعرت بأعماق الأنا أن كل المسافات تلاشت بيننا. وكنت تجدينه شيئا عاديا ولكنني لمت نفسي ليلتها وشعرت أن رجولتي اهتزت أمامك. فتحاشيت الحديث معك أياما

وسعرت خدي لكِ يوما وضحكت بالمساء. اختلطت مفاهيمي لأنني فعلا لم أرد أن ترى محبوبتي رجُلها يبكي.

_ولكنها لم تسمي دموعك ضعفا.

_وما أدراك أنت؟

_لأنها أخبرتني بهذا.

_ماذا؟ أكلمتها ! ما أسمته إذن. أ و لا يهم الآن. لا يهم.

_سعيد سمية لم يزعجها كلامك ولا دموعك ولكنها شعرت بالضيق وأنت تحاول امتلاكها، وكانت تراسل صديقتها بالشام لتخبرها أنها تشعر بالانزعاج من تصرفاتك وأن مشاعرها اختلطت بين حبها لكَ وطبعك الذي منعها من العيش بسلام فقد دخلتَ حياتها بدون أستاذان وأصبحت تظهر لها بكل الأمكنة وخصوصا بعد مغادرة أخيها. خنقت حبكما سعيد.

_ولكنها كانت تحتاجني.

_سعيد إنك لم تحترم المسافة بالحب فالحب ذكاء المسافة كما قالت مستغانمي. وأنت التهمت بحبك لها خصوصياتها.

_وهل هناك خصوصية بين المحبين؟

_ومن قال أنها .... و غادرت مسرعا وتركت سعيد مدهوشا. أنا آسف سعيد كان لابد من قولها.

_من تخال نفسك أنت مجرد كاتب يود أن يصنع منا بيادق برقعة الحياة التي يعيشها .ويواري عندها وجهه ويتبرج للقدر .سيدي لم أكن أريد أن ألعب دور هذا الحجر .ولكن لأنني لا اعرف بالضبط مساحة الورق التي ستتركني أعيش عندها سأواصل رحلتي معك .ولكن بتأني لأننا لا نملك أقدارنا مثلك .سيدي أنا فعلا كنت أزعجها لن أنكر هذا ولكنني آن ذاك لم أكن أجيد غير هذا.

خرجت من درس الكيمياء رغم أن كل الشباب بهذا البلد يحاصرونني بنظراتهم المملوءة حباً وشغفا وشفقة. كنت أدرس بجد لأنه الشيء الوحيد المتبقي لي بعد مغادرة أخي وكل البدايات مع سعيد الذي يمارس عربدته على مفردات حياتنا وتعجبني كلماته وهو يتمرد على جملنا الهشة التي نتبجح بها. كان سعيد يمقت السطحية التي تسكننا ويخبرني بين نسائم كلماته بقصص عميقة المدلول ويبعث بي إلى الجانب الآخر من الأنا فكان صوفيا وأديبا ورجلا وأنيقا وحالما.

رن هاتفي وأنا بالدرس برقم لا أعرفه فانتظرت حتى نهاية الحصة وأعدت الاتصال ففاجأني بصوته، لم يلق السلام وأول كلمة قالها:- كيف تكلمين رقما لا تعرفينه يا أستاذة ؟ هكذا هم المغاربة دوما يسبق شكهم نواياهم .ثم أخبرني إنه يجب أن نلتقي الآن. فأيقنت أن الخبر يخص أخي سمير .وحددنا موعدا بكفتيريا الكلية .

سلم ثم قال: سمية هناك أخبار عن أخيك. فخفت وارتعدت أطرافي مخافة مكروه فقال: اطمئني لقد غادر لليمن .

فصمتت مليا لأن سمير أخبرني عند دخولنا للجزائر إنه يحلم بالذهاب لليمن. ومكثنا مدة طويلة وهو يحاول تهوين مغادرة أخي سمير ويعدني أن يكون أخي. وكلمة "أخي" التي كانت صادقة منه. ولكن عندما ذهبت لغرفتي بكيت بكاء المكلوم لأنني وحدي واحتضنت كتابا وظللت أبكي حتى رنّت رسالة بهاتفي بعثها سعيد يقول فيها " لا تيأسي فأنتِ رائعة، رائعة بحق" .كانت رسالة منحتني الحياة لوهلة ونمت.

وتوالت الأيام وسعيد يحاول التخفيف عني فأراني سوق المدينة وكل سحرها وأخذني للسينما وجلس بعيدا عني عند آخر كرسي ليتسنى له مشاهدتي. ولم يسعف سويعاته ليسخرها كلها للتخفيف عني بعد مغادرة سمير. كنا نجلس دوريا بمقهى الجامعة حتى بدأت الشائعات تتكلم عنا. وكان سعيد يقول عنها لا يهمك سمية فالكلمات كالسفن وهي قادمة نحونا

لا نعرف ما تحمل حتى يفرغ حمولتها عامل بذيء بالشاطئ لا يحلم إلا بالتشبث بإحداها لمغادرة البلد وكان يمازحني بالقول: فلنكن نحن ذاك العامل البذيء الذي لا يأبه لما تحمل السفن. وكان سعيد يجلب لي كل ما أحتاج إليه حتى أوراق محاضراتي فكان يحاول إسعادي بكل جهده حتى بدأت أشعر أنه مقصر بحق نفسه .

أذكر أنه هاتفني بالصباح، فجهاز الهاتف عند كل البشرية هو وسيلة للتواصل أما بيننا أنا وسعيد كان ثالثنا الذي يكلمنا عنده القدر.

قال : سمية فرغي نفسك لي اليوم سأريك سرا من أسراري و لا وسأنتظرك بعد ربع ساعة عند مقهى الجامعة. سلام. ثم أغلق المكالمة.

هي أحد صفات سعيد التي أنزعج منها أن يذهلني ببرنامج لم يستشرني به ويحرجني بالموافقة.

كان ينتظرني عند موعدنا دائما هو هكذا سعيد لا يؤمن بالمواعيد يخبرني أن المواعيد المضبوطة خلقت لأصحاب ربطات العنق أما من يأتي متأخرا فهم اللامبالون بمفردات الحياة. أما من يأتي مستعجلا المواعيد مثله هو المتوجسون من ساعة اليد .

ثم قال :تعالي معي وحسب.

مشينا قليلا حتى موقف الباصات .كان موقفا يعج بالضوضاء فيباع العصير ببراميل والجرائد تمسكها أحجار لكي لا تطير مع الجو

وأطفال ذوو سحنة سوداء يمتهنون الشحاذة وكشك صغير يبيع كل شيء حتى حبوب الصداع ولافتات كبيرة بلغات عدة .وشيوخ وعجائز وزحمة حول بائع أعشاب صوته من وراء الحشود يصدح بمرهم لكل شيء وآخر يبيع دواء الحشرات. هالني المنظر حتى قال سعيد : اركبي.

ركبت باصا ضيقة كراسيه قال إن الصينيين الذين صنعوا هذه المركبة وهم لا يفقهون أحجام سكان العالم الثالث. وظل الباص يمشي وأنا بجنب الشباك وسعيد فرح وأنا أنظر للبلد من داخل الباص فكان منظرا رائعا ولأني أول مرة أركب باصا بالجزائر وكل ركابه يتكلمون.
فالجزائريون يتكلمون بسرعة ولكنهم تتسم بالخشونة كتعابير وجوههم وهم يتحاورون، مفعمة بمفردات فرنسية فكان سعيد يعمل مترجما لي فهذا سائق الباص يخبرنا أن نتلاحم ويصف ذاك التلاحم بالرحمة وتلك زمرة من العجائز تتذمر .

وبعد عشرين دقيقة مرت كحلم نزلت مع سعيد وتلك أول مرة يمسك سعيد فيها يدي لكي نعبر جموع الركاب بالباص. نزلت بسوق شعبي وأخذنا بالمشي داخله ونزاحم عباد الله وأنا خائفة أن يراني أحدهم مع سعيد لوحدنا ولكنني كنت منتشية وهو يقودني عبر الجموع. فعلا كان السوق يشبه أسواق سوريا لأنني زرتها وأنا صغيرة ولا فرق بينهم إلا منادات

الباعة. فجأة توقفنا أمام محل قديم وقال:" تفضلي سيدتي ادخلي إلى عالم سعيد".

كان باب المحل خشبيا بلون أزرق معتق بلون الغبار ونافذة صغيرة تذكرك ببيوت أوروبا، دخلت إذ بي أمام محل مملئو برفوف كتب معظمها خشبي وغير متناسقة متناثرة بشكل فوضوي. أربع رفوف منها تسندها خلفية الحائط الملطخة بمادة الجير الأبيض أمامها طاولتان حديديتان فوق أحدها جهاز تلفزيون قديم وتحتها عدة رزم من الجرائد القديمة المربوطة جيدا. الرفوف الأخرى موضوعة بشكل متقابل يجعل من يدخل المحل كأنه بمتاهة من رفوف الكتب. مشيت خطوات وقد اختفى سعيد ومررت يمينا مجتازة جهاز التلفاز متتبعة صوت سعيد، لأراه من بعيد يقبل يد شيخ سبعيني جالس بمكتب يكاد يهوي من فرط الكتب من فوقه وعلى يساره باب مفتوح قليلا. كان الشيخ يرتدي قبعة الفنانين لا يظهر منها غير شعره الأبيض الكثيف فوق أذنيه ويلبس شالا أرجوانيا يشبه المسرحيين لحد كبير.

قال : سمية تقدمي هذا عمي سالم أستاذي وملهمي، ثم همس لي "إنه هدية القدر ". عندما يتكلم سعيد عن القدر فهو يلقي بنا ببعد لا يراه إلا هو ومن يفهمه. فقلمه يخبرنا أن القدر هو البعيد الذي يهزمه ويهزه بآخر كتاباته. وكلامه يترجمه أنها القوى التي نسكنها مجبرين لنركن إلى التسليم

وأما عندما يوسم أحدهم بالقدر فهو يخبرنا إنه هدية الخالق لعباده التائهين وهذا ما فهمته من سعيد آن ذاك .

قال: "هذه سمية التي أخبرتك عنها أستاذي".

كانت نظراته المتأنية تخيفني ثم قال: "أأنت من فلسطين أم هواكِ سوري؟".

قلت: "أنا سورية أسكن غزة".

قال : "جميل" .

ثم عاد ليضع كتابا بالرف بعدما مسح الرف بيده واستدار لي وقال :"بنيتي أتعرفين أن الكتب تسمعنا وتشعر بنا أيضا ".

قلت: "ربما" .

قال: "بنيتي أتعرفين أن الرّبما وجدت للهروب من النعم و اللاّ. إن الكتب بنيتي مثل قلوب النساء لا يملك مفاتيحها إلا رجل واحد ومكان واحد و موسيقى عدة".

فتدخل سعيد وقال: "أستاذي على رسلك فهي لم تدخل عالمنا بعد".

فقال:ربما وابتسم .

وبدأ سعيد يخبرني تاريخ هذه المكتبة وقصة الشيخ سالم وكانت له طقوس فكلما أخذ كتابا ليريني إياه طلب الإذن من الرفوف أولا. وأخذنا

بتصفح الكتب والمخطوطات القديمة و أهداني رزمة من الكتب عن الأدب الروسي وقال هو أدب لا يؤمن بالصدفة. واختفى عمي سالم. ومع طول مكوثنا لمحت عبر الباب المحاذي لمكتب العم سالم سريرا منضبا جيدا وسحت بخيالي إلي ما تتمناه كل بنت من سرير غرفتها. وسعيد يراقبني من بعيد ثم اقترب خلسة وهمس بأذني "سمية يعجبني الطفل الذي يسكنك" ومرت ساعتان وسعيد يتكلم عن الكتب والأدب وحكاية كل رف و فجأة أقترب العم سالم وقال: "سمية أريدك أن تكتبي عنا ذات يوم بعد عودتك لوطنك. وأمسك يدي وتكلمنا عند مكتبه عن الشام وكان يكلمني عن كُتاب وعن أحياء غزة ويومياتهم وحديثه كان متراتبا وكأنك تسمع لرواية وكان ضليعا بالتاريخ أيضا. فعلا أحببت عمي سالم فهو يشبه شخوص روايات التاريخ. وفي الأخير ودعنا عمي سالم أنا وسعيد. وقبل مغادرتي قال: "سمية ابحثي عن مفتاحك بالكتب فالحياة أصبحت لا تؤمن بالأقفال. وظلت هذه العبارة ترن بأذني طيلة طريق عودتنا وسعيد صامت وكأنه يفكر بالعبارة تلك أيضا.

_لما هكذا يا سالم!

فقد حشرت ذاتك التي لم تفلح يوما بالحب ولم تتذوقه إلا بروايات رفوف مكتبتك التي تناساها الزمن عنوة فهي لم تعد تؤمن

بأبواب الخشب ونابت التقنية عن كل تلك اللحظات الركيكة من بدايات كل لقاء .ولم تعد تؤمن بصناديق البريد كذاك المعلق ببابك.

لما أزعجت شخصيات روايتي يا سالم ؟

فأنت لم تكن يوما قرويا لا يؤمن بالحدود كسعيد ولم تكن مشرقيا يلقي بكلمة حبيبي جزافا لكل شخص يلاقيه كسمية، ولم تكن متعبا مثلي .

_لا بل كنت. كنت أحب صبية تحمل بين ابتساماتها وطن. فكانت أول حب و آخر ذكرى، تعرفت على صليحة عندما كنا طلبة بالجامعة، كانت فتاة تنتمي للحزب الشيوعي ولا تؤمن بالفكر البومديني وتجاهر بخوفها منه، شُج رأسها وهي تنادي عاليا لا لعدالة الفوضى ولا لفوضى العدالة. وعندما مسحت الدم على وجهها عرفت أنها تريدني. ومرت سنوات الجامعة ونحن نحب الأدب الروسي ونتصدر النضال السري رغم أني من عائلة متدينة ولكنها اختفت ...يكفي هذا، لا أريد أن أخبرك المزيد.

_لا بل تريد .

_نعم اختفت لأني كنت نذلا لا يعرف معنى أن تحبك امرأة ..ولم يبقى من ذكراها غير هذا الشال .

كانت طريق العودة متخمة بالصمت الرهيب فكلمات عمي سالم لم تترك بدا لشوقنا وتركتني أفكر ،هل يمكن لسمية أن تغادرني يوما .ولم أرد أن اتعب خيالي بفقدانها فمساحات الذاكرة المخصصة للعشق قليلة بذاكرتنا نحن بنو البشر مقارنة بمساحات الذكرى والألم.

لمَ تغادر وهي المرفأ والملجأ والحب الوحيد الذي سكنته ؟

لمَ وقد وجدت فيها نفسي التي غادرتني وأنا أكتب ووجدت فيها كل خيالاتي وكل قصصي وكل النظرات الحالمة التي تشبهني .

فقد كنا نصبوا لنفس العالم الحالم الذي لا يؤمن بالقيود ولا يرى بعيون العامة ولا يشتغل بوسائل الإعلام السطحية. ويرى اللغة هي المنجى الوحيد لزرع الفهم. كنا نتكلم عن فلسطيين عاشقين يراسلان بعضهما وسوريا عجوز تدخن لفافة سجائر ورجل صالح يسكن مخمرة بالمغرب العربي، ولم نكن نؤمن بكتب التنمية البشرية لأنها تجعلنا مومياء تبحث عن نتيجة مسطرة حتما بمعطيات قبلية سخيفة .

أوصلتها لباب الإقامة وغادرت دون أن أودعها لأنني خفت. سمية لقد استنفذت لحظات السقوط فلم أعد بعدك قادرا على هزيمة أخرى. ولم أعد ذاك الشاب الوسيم الذي عهدته ولا ذاك الحالم. بعدك لم يعد هناك معنى للتصوف ولا للموسيقى ولا لسيجارة الحسرة. لقد كتبتِ لي ذات مساء "أن لا تبأس لأجلي " فعلا أضفتِ روحك المنزعجة مني بكلمات كنت

أعي هذا ولكن لم أستطع. لم أستطع أن لا أراك يوميا ولم أستطع أن أتركك لوحدك. كنت دائم التفكير فيك فملكتِ ذاتي.

كنت أود أن أسعدك وفقط سمية. عرفت كل تفاصيلك ولونك المفضل وكم قطعة سكر تحبذين وعندما تغضبين أغضب أنا كذلك. وحتى كيف تمسكين دبوس خمارك وكذا صديقتك الثرثارة ... كنت أود أن أكون أنتِ لأسعدك. كان حبي لك صوفيا لا يؤمن إلا بالبذل ويدور حول حلقات حبك ليغرف منها ويعزف ناي كلامك. تناسيت عمدا الأنا التي تسكنني لأنه لم يعد مكان يخلو من حبكِ تناسيت بعض محاضراتي وموسيقاي المفضلة وحبي للبيزا، وأصبحت أحاول أن أكررك عندي بالغرفة بأن آكل الزيتون وأغني الميجانة وأنام باكرا لأحلم بكِ.

_لم أكن أريد سعيد. نسخة عبثية مني، كنت أريده هو بنضاله وحبه لوطنه وأشعاره وبعض صبيانية منه.

_ولكنكِ كنت مستمتعة بخدمته لكِ.

_لا كنت غير ذلك، كنت أراه يرهق نفسه لأجلي وأنا لا أستحق كل هذا فأنا بنت عادية تحلم أن تكمل دراستها وتتزوج وتنجب أولادا وفقط.

لم أكن أريده أن يعيش لأجلي لأن حبنا كان محتوما بالهجران. وكان أسلوبه بطرح المعاني يخنقني فهو يريد مني أن أجاري عمقه وأطيل أُطر الطرح فهو لا يؤمن بالحدود حتى بالأمور البسيطة .

_ولكنكِ كنتِ تحبين أسلوبه ذاك رغم أنه يخنقكِ.

_وإن كان فهذا لا يبرر له أن يخنقني.

_ولكنه يحبك.

_وهذا ما كان يزعجني وأنا كنت أحبه كذلك وأنتَ أدرى.

هاتفني حمدي ليخبرني إنه يجب أن نلتقي بالبحر، فعلا كنت متوجسا من لقائه ولكنني لبيت الدعوة.من بعيد وجدته متوجها للبحر صوب الأفق ويجالسه فنجانه، اقتربت بدون أن أزعج جوه العام لأني أعي أن من يكلم البحر لا يمكننا أن نكلمه إلا إذا خاطبناه من خلال الأفق.

_ لمَ جئت؟

_ "ألم تستدعني أنت !" .

_ سعيد أنت تحب البحر مثلي لهذا استدعيتك هنا ثم عقب وقال: "سعيد إن البحر كالوطن يجمع كل الأنفس ولكنه في الأخير يلقي كل من يترك روحه طوعاً".

_ربما.

_ سعيد كيف حال سمية. أتحبها؟.

_لا أدري والله .

و فجأة قاطعت حديثنا ضجة عارمة لرجال يحملون كفنا، فوقفنا لأننا نحن بالجزائر نقف رهبة من الموت عندما تمر عبرنا ووجهانا صوب الجنازة.

قال: "سعيد الظاهر أن صاحب الكفن فقير مثلنا" .

فقلت: أتعرف أن بلدي عندما يموت الفقير يبكيه الفقير وأمه وبعض شبان يسكنون طرف الحي.

فقاطعني وبنفس الموجة الشعرية التي أتكلم بها قال: "وبنت تراسل حبيبها خفية ورجل لم يسدد ثمن أقساط الثلاجة بعد وكل العجائز" .

_إذن الفقير ببلدنا قدره البكاء وتوريث البكاء.

_نعم..

_لمَ ناديتني يا حمدي.

_ لأخبرك أن البلد يريدك أن تشتغل معه .

_ماذا تقصد بالبلد هنا".

_يريد منك أن تخبرنا عن أخبار سمير .

_عبر سمية! مستحيل .

_لا تغضب سعيد أي أخبار قد تفيدنا" .

أنهيت الحوار بيننا وصعرت وجهي له وهممت بالمغادرة تاركا إياه والبحر وأنا ألعن اليوم الذي عرفته فيه وأحببت سمية .

_ملاعين هم أولئك الحالمين ...سعيد أنتظر منك يد المساعدة ...سلام" .

هاتفني والدي عند الساعة الحادية عشر ليلا كغير عادته لأن علاقتي بوالدي كانت كأي علاقة أب شرقي لا يكلم ابنته كثيرا وبنت لا تضع جميع مفرداتها أمام أبيها.

أذكر يوم جاء ابن عمي لخطبتي وأنا أدرس بالإعدادي ولم أكن أعي يومها معنى أن تخطب فتاة فقد كنت أمارس طفولتي وأمازح أقراني من الذكور بكل عفوية. لا أخفيك أنني كنت أحب مدرس الأحياء لا لشيء إلا لأنه يذكرني ببطل فيلم نعشقه كلنا بالبيت.

لم يرفض أبي بادئ الأمر لأن واقع غزة يفرض على نسائها الارتباط مبكرا لإنجاب الأطفال ليفاقموا أزمة النمو الديمغرافي الرهيب بالبلد ويغيضوا اليهود أيضا وللسخرية كانت تصفنا صفحات التواصل اليهودية بالأرانب ...

هاتفني والدي ليخبرني عن ...

_انتظري سمية، لا أريد منك أن تستعجلي الرحيل أو أن يخبرك والدك إنه علم بمغادرة سمير .أرجوك سمية، اتركي لي ولسعيد متسعا من الوقت ليخبرك بكل طرق الحب وحتى المزعجة منها إنه يحبك. وأحاول أنا أن أصيغ منكِ شيء غير الذي أخبرنا به سعيد. سمية لست لئيمة كما وصفك سعيد رغم حبه لكِ. ولستِ مثالية لأني أنا من أرسمكِ بهاته المساحة من الورق.

أرجوك سمية لا تغادري الآن. سأخبرك عني قليلا سمية.

أنا ثمل أحاول أن أصحوا بهاته المساحة من الورق، أشتغل صحفيا بجريدة محلية رئيس تحريها مهووس بنفسه .أكتب بقسم التحقيقات فتعرفت على العديد من البشر منهم من فقد بوصلة أحلامه ومنهم من أُدخل عالم الجريمة ومنهم من يكره أمه ومنهم من مات ولم يسمع به أحد. لدي علاقات كثيرة هي من سمحت لي بالولوج لعالم الصحافة فقد خدمتهم بمعلومات ذات مساء. أكتب لأنني أريد أن أكتب.

أعشق الحياة وكل مفرداتها وأحلم دائما بعالم تحكمه الكتب وشيخ يحكي بآخر الليل حكايات الصوفي الأخير. أتقاضى أجرا يكفيني أن أتكلم بلطف، أصدقك القول سمية "أنا لا أعرف من أنا " وتزوجت بعد الفتاة التي أحببتها بصدق وأكتب عنها دائما.

_لا تخف، يا من صنعتني من ورق. هاتفني أبي ليخبرني أنه يفتقد سمير فقط. ألم تخبرني أن نكون أصدقاء. وابتسمت تلك الابتسامة التي أحبها أنا وسعيد.

_فعلا خفت من مغادرتك يا سمية أوراقي. فلست مجرد روائي يكتب ليقتات بكتبه ولا حتى رجلا يريد أن يتسم بالمثقف. بل أنا حالم يسكن أوراقه ولا يريد مغادرة هذه المساحة من الورق لأنني لا أريد عالمنا ذاك الذي يشعرنا بالغثيان ولا حتى تلك الصفحة من الصحيفة التي تتجرع هموم الناس ولا بعض قصص أضفي لمسة إنسانية بها لكي لا أكون ثقيل الدم كل صباح. سمية كم أنتِ رائعة.

_صديقي كم أنت رائع أيضا لأنك منحتني الحياة فلا تقسوا عليا بما تبقى مني .

_ربما .

_تزعجني الربما هذه .

_فعلا سمية ،الربما هذه تزعج سعيد أيضا .

كانت رسائل أبي التي تحاول السؤال عن سمير تزعجني فاخترعت كل أنواع الكذب، تارة أنه منهك بالدراسة وأخرى أن هاتفه ضاع .ولكنني تعبت من كل تلك الأكاذيب وأصبحت أتأرجح بين فقدانه وحب سعيد الذي يضايقني رغم حبي له. فعلا لم أفهم طريقة تفكير هؤلاء المغاربة فحبنا نحن المشارقة سهل تحتفل به البنت مع صديقاتها ويحوم حبيبها حول حمى وجودها. ويستقبلك بائع الفول بكلمة حبيبي وتحمل البنت وردة أمام أبيها. حبنا نحن المشارقة سهل فرح بحريته، يتكلم بعفوية ويدرس بروضة العامة من البشر ولكن لا أخفيك سراً أن سعيد سلب قلبي وكياني بشخصيته وقوة طرحه فقد كان حبه مفاجئا لا يشبه كل قصص روايات الحب.أذكر أنه كان يعشق الزحمة مثلي ، وكنا نتمشى بالسوق لساعات بين الحشود نتكلم عن كل شيء . عن آخر كتاب قرأناه والمسرح وكنا نتكلم كثيرا عن الأدب الجزائري فقد أحببت معه "الدار الكبيرة " لمحمد ديب وشخصية الخال ب"ابن الفقير "لمولود فرعون وفكر "مالك بن نبي " .كان جزائريا بحق يعشق وطنه حتى أغار من طريقة حبه تلك .كم كنت أحبك سعيد وأحب طريقة تعصبك عندما تتكلم عن واقع بلدك وتقاعس العرب . ولكنني كنت لا أحبذ المشاعر التي تشحذ فقد كان يتحين الفرصة ليشحذ مني اهتماما لا أحبذه ضعيفا أمامي صدقني . ولكنه كان سندي

بهذه الفترة من العمر ويتستر وراء هذا لأنه يحبني وتزعجني مشاعره الدفاقة وموجة الاهتمام العارمة التي تخنقني . كان سعيد كل شيء السند والملجأ والمحب والمزعج ...كان رجلا بحق .

_غادر سعيد لبيته أيام عطلة نصف السنة، غاب عني أسبوعين فعلا شعرت بارتياح ظرفي عند مغادرته رغم أنه يهاتفني أحيانا و سمحت لنفسي أن أكتشف أشيائي الصغيرة .رجعت لعادة الطهي وتفحصت مليا قوامي واستمعت لفيروز لتذكرني بالشام ورقصت ليلا لوحدي وكتبت بعض أمنياتي وافتقدت سمير وسعيد .

واجتاحتني فكرة أن لا أكلم سعيد بعد مجيئه مخافة أن أحبه أكثر . ولكن أهم شيء فعلته هو أنني أخبرت أبي بمغادرة سمير وردة فعله التي حيرتني إذا قال وبكل بساطة وكأنه كان يعرف قرار ابنه

قال "أكملي مشوارك بدونه ولا تسمحي لأي كان أن يستعبدك "

لمَ قال هذا وكيف ؟ لعله سمع قصتي مع سعيد ، ولعلها شيم أهل الشام التي تأبى أن تشعر بالهزيمة حتى وإن كانت مؤلمة .المهم أن جبلا من الهموم انزاح عن كاهلي لأنني أخبرته .أكانت كلمات أبي تخبرني أن لا أكمل الطريق مع سعيد؟ .ربما .

وقررت أن لا أخبر سعيد أيضا أن قصة سمير وصلت غزة وفكرت مليا بسؤال "من أنا؟".

سؤال أجج برأسي ملايين الأسئلة فهل أنا سورية تزاحم رؤى زنوبيا وعنفوانها وجبروت حارات الشام .أم أنا فلسطينية أسكن حالة من الثورة والألم ؟

أتراها أول خمس دقائق من عمرك كفيلة بتحديد كينونتك وميولك الجنسي وكذا انتمائك القومي .

من نكون نحن ؟

نحمل حقائبنا لنسافر بعيدا ولا تستقبلنا غير ابتسامة خاتم جواز السفر المصطنعة.

ولمَ رمى بي القدر إلى هذه البلاد ؟

ولمَ سعيد ؟

من نحن؟ أترانا نسكن هذه المساحة الموجوعة مثلنا فلا نملك غير صورة الشفقة وعُملة العدو لنشتري بها خبز صباحنا. لمَ نحترق يوميا بنظراتهم التي تشتاق لترابنا ؟

التراب ...

يجعلوننا ترابا وحدودا وسنوات نؤرخ بها قرارات الأمم المتحدة.

يروننا ترابا !

ولا يرون الفلسطيني غير ذاك المقاوم المتعب برسائل ابنته وصورة خطيبته ودم العدو .مجتمع ثوري لا يؤمن بأن ذاك المقاوم هو شاب يراسل حبيبته خُفية ليخبرها أنه سئم.

لمَ لا ترانا عيونهم شيئا آخر !

لمَ لا يتحدثون عنا كبشر نخطئ ونمارس كل عاداتنا السرية ونتبرج لنظفر بحبيب ونغضب من ماكينة النقود ونشتم الحكومة.

فعلا أنا متعبة لأني فلسطينية.

ومرهقة لأني سورية .

وحزينة لأنني أحبه ...

فقررت أن أتخذ محاضراتي مؤنسا وأتخلى عن سعيد لكي لا أتورط فيه أكثر .

جاء سعيد بعد نهاية العطلة محملا بخبز جزائري طهته أمه وبعض كتب والكثير من الصمت .أضنه هو كذلك يريد أن يتخلى عني رغم أني أعرف أن طابعه العروبي لن يسمح له بالتخلي عني .

تغيرت طباعه تجاهي وقلّت رسائله وأصبحنا نلتقي مرات قليلة بالأسبوع، فتماشى قراره مع رغبتي بدون أن نخبر القدر .

مر شهر ونصف ونحن نتثاقل بالرسائل وبالحديث حتى أصبحت جملنا باهتة جدا.

_ألم تسألي نفسك سمية لمَ تغير سعيد رغم أن القرار قرارك ؟

_فعلا سألت نفسي كثيرا. ألم يخبرك ؟ ولكن لا يهم الآن ، أو أقول لك أخبرني أريد أن أعرف .

_سمية، سعيد رغم حبه الجارف لكِ وكل عنفوانه وجبروته إلا أنه رجل. والرجل الحق يستشعر من حبيبته التغير فتضايقه مشاعره ولا تترك له حيزا آخر للتوازن الداخلي غير الابتعاد والخوف من الضعف.

_هههه ، هي طباعكم أيها المغاربة . كما تملكون الحب الجارف . تملكون الخوف من الضعف هستيريا .

_ربما .

وضحكنا أنا وسمية معا . وبتنا ليلة كاملة نتكلم عن سعيد وعن مغاربيتنا أنا وإياه و مشرقيتها ...

ابتعدت عن سمية لأستعيد توازني . فقد كنت أجلس صباحا بالمقهى البعيد عن الجامعة أطلب فنجاني قهوة وأكتب عنها. ودخلت بمرحلة طوعية هي أن أطمئن عليها من بعيد لا لشيء إلا لأنني عربي رغم حبي لها . وحاولت مرات عدة أن أصاحب غيرها و أتعربد على مفردة الحب اللعينة . صببت جام غضبي بكتاباتي بصفحتي كنوع من الفيض ورسائل موجهة لها وكانت تُغيضني صفحتها الفارغة فهي ليست من النوع الذي يتكلم عن دواخله مثلي وهذا اختلاف جوهري بيننا ولكن مع مرور أسبوع آخر لم أستطع مقاومة حبي لها .فأرسلت لها رسالة بحسابها

"سمية . لست من الرجال السيئين ولست ممن يلبسون التُقية ولست صوفيا كما أدعي . ولأن القدر يستعجلنا دائما ...

أقول لكِ أحبكِ ...أحبكِ وفقط"

وأغلقت حسابي مخافة ردة فعلها وخرجت مسرعاً لأكلم فنجاني لعله يخبرني عن ردة فعلها .

قلت أحبكِ. قلتها لأول مرة لأنني سئمت الانتظار ، فالانتظار سمة مزعجة اخترعناها لنجلس على حافة الانهيار ونستمتع بتلك المساحة من عدم السقوط .ربما الحياة منحتني إياك لتخبرني أنني يوم ولدت بقريتي لم أكن نوتة تُعزف لوحدها .

أتذكرين سمية يوم طلبتِ مني مساعدة بأوراقك الرسمية واكتشفت أن اسمك "سمية مجدي " نعم هي تفاصيلنا المملة التي نحتضنها ونسكن بلا استحياء بساحتها فنجلها نحن وتصبح شيئا يجب أن يذكر ونتغنى به .وأبديت انزعاجي لأني عرفته آن ذاك فقط . هو الحب يصنع من تفاصيلنا الصغيرة عناوين كبيرة لرواية حيزها خياراتنا وحدودها القدر وأما من يقرأها فهو من يشبهنا . كنت ولا زلت أحبك حد الجنون بكل تفاصيل قصتنا معاً.

وبغريزتي الذكورية كعربي يتمنى حبيبته تهرول إليه لا لشيء إلا لأنه قال أحبك . كنت أنتظر ببرجي الخرافي الذي صنعه جدي وجد جدي وكل بذرة رجعية زرعت بجداتنا. ولم أجد مخرجا لأنساك ولو قليلا إلا الاقتراب من حنان .

حنان تلك الفتاة المتحررة التي تعاند أيامنا بالتبرج والعمل بنادي ليلي . اقتربت منها لأني أردت أن أكرهكِ. وكنت أريد أن أنساك بأسلوب متمرد مثلها .بل أصارحك كنت أريد تجريب الجسد.

لا تتعجب نعم كنت أريد تجريب الجسد فالجسد بفلسفة حنان هو كيمياء وموسيقى .وجدتها لوحدها تضع سماعتَيْ الأذن لتهرب من جميع نفاقنا المجتمعي وجسمها ذاك الذي يحثك على الاقتراب منه ، تلبس كنزة تظهر جيب صدرها وسروال جينز أسود اللون وتطفئ سيجارتها بالعشب. كانت تذكرني بسعاد .

اقتربت وأنا أشتهيها ،بمجرد أن رأتني وضَعت السماعة جانبا و أومأت لي أن أجلس بجنبها . فقد كنت تكلمت معها عدة مرات قبل ذاك اليوم .

قالت : اجلس سعيد فأنت تريدني اليوم .

ارتعدت فرائسي من كلامها المباشر ذاك ولم أستطع الرد وتسمرت بمكاني بالرغم من أني تمنيت ذاك ولكنني خفت . فأمسكت بيدي وأجلستني بجنبها وأنا كالطفل بجنبها .

قالت : سعيد سأحكي لك شيئا يشبع فضولك . فابتسمت بخجل ولم أزل بهالة الصمت تلك .

_سعيد أنا لن أقول أنني ضحية المجتمع وكل تلك السخافات. أنا أحب دوري هذا، وأنا منحرفة وأنت وكل الكلية تحبون دوري هذا ليضفي نوعا من الرضا الأبله الذي تتصنعون به عندما تقارنون أنفسكم بأمثالي .

_ لا أنا لست مثلهم .

_ ولهذا أنا أكلمك وإلا فقد شتمت أمك التي أغتصبها أبوك برضاها .

وتغاضيت عن كلامها الذي يشعرني بالأسى .

_ سعيد تريدني اليوم صح ؟

_ ولمَ تقولين هذا ؟

_ لأنني أشعر برغبة الرجل قبل بوحه فهذا عملي يا حبيبي.

قالت حبيبي ، فهي كلمة مستباحة المعنى عند بنت الليل تمنحها إياك على حسب النقود التي تقدمها لها .

_ سعيد قبل أن أمنحك ما تريد سأحكي لكَ شيئا ما .

"كانت نورة فتاة تعمل بالملهى الليلي الذي أعمل به ، تحب الحياة وتدعي أنها أتت لذاك المكان لتعيل عائلتها . في حين هي كانت باستطاعتها أعالتهم كعاملة بمصنع أو غاسلة صحون بمطعم أو حتى أي وظيفة أخرى ولكنها كانت تلعب دور الضحية وهي تستمتع بأجساد الرجال ليلا . أترى كم هي ساذجة .

فحركت شفاهي لأشعرها بالامتنان .

خرجت ذات ليلة مع أحد الزبائن الذين لا يريدون أعين العامة تراهم بالملهى فتُخدش مكانتهم المجتمعية (أولاد ال.....)

فلم تكمل لتجهم وجهي .

أدخلها شقته الفارهة ، وكانت شقته تملؤها لوحات الحائط المنتقات بدقة و يتوسط غرفة الضيوف الواسعة بيانو عتيق وكراسي ارستقراطية و انتيكات جميلة .

قال : تفضلي يا سيدة .

هذا التصنع بكلمة سيدة لا تأخذه فتاة الهوى يشكل جدي ففي الأخير هي تعي ماذا يريد . لم يمسك يدها ككل الحمقى الحيوانيين الذين يريدون الجنس .

وقال : لو سمحتي هنا غرفة النوم سأستحم وأرسل بعض الايميلات وألحق بكِ .

دفعت باب الغرفة برَوية لكي تحافظ على نوتة خواء البيت. وجدت غرفة النوم التي لم تشاهد مثلها إلا بالأفلام الفرنسية التي تدمنها . بعفوية وبملابسها وضعت حملها على السرير الفاره وعيناها بالسقف ويداها مفرودتان وأخذت نفسا عميقاً ولم تفكر بشيء غير أمانيها الليلية .

ولم تشعر بالزمن وهي لوحدها تملك كل هاته المساحة من الحلم إلا وقد استفاقت على ضوء الصباح يلج النافذة ليوقظها .

استفاقت هرعة تنظر يمنة ويسرة ولم تلحظ غير ورقة معلقة بالمرآة فأسرعت وانتزعتها .

_أتريد أن تعرف ماذا كتب لها أيها الكاتب ؟

_بالطبع أريد . وأنا أرسم ملامح الشغف على محياي

_كتب لها "

" وجدتك نائمة فلم أرد إزعاجك يا سيدة ...ربما أحضرتك إلى هنا لأغيظ زوجتي التي هجرتني لأنني ...

ولكنني بمجرد الاقتراب منك وجدتك كالملائكة أو كصبية بريئة فلم أشأ إزعاجك .

سيدتي لم أحضرك الى هنا لأنني أشتهيك ...إذا أردت المغادرة فواري الباب وسلمي المفتاح للحارس بعد خروجك .

شكرا على هذه الليلة يا سيدتي "

_وماذا فعلت بعد هذا ؟

_لم نراها بعد ذاك اليوم .

يدفعني فضول الكاتب قلت .لمَ ؟

_قالت : لأنها فعلا سيدة .

_وهو ؟

_طرده مدير الملهى لأنه لا ينتمي لعالمنا بل يريد أن يعاقب روحه بالنظر لأجساد النساء كل ليلة .

ثم انفجرت بهالة من الضحكات الهستيرية وقالت :" سعيد لا تعاقب روحك فأنت جميل ولا تنسى أن تذكرني بكتاباتك ."

فوقفت تاركاً المكان لحنان وأخذت أول تاكسي لأن روحي متعبة .

أخذت تاكسي وأنا أشعر بالكم الهائل من الأسى الذي تملكني وأنا أفكر بكلام حنان .ثم جالست المقهى وأخرجت رزمة من الوراق المغشاة بالبياض وقلما أحمراً ووضعتها أمامي . وطلبت كأس شاي . رغم أني لست من هواة الشاي ولكنه تمرد آخر يبعدني عن تمردي الأول وصفعة حنان .

وأنا منهمك بكتابة بعض أسطر وبعد أسبوعين من تجنبي لسمية وكل عالمها تلقيت رسالة من سمية تخبرني أن الشرطة استدعتها وهي خائفة ولم تجد منجى غيري .

_أأف ،لا أريد هاته الكلمة "منجى " أنا قلت أحبك يا سمية لا أريد أن ألعب دوراً آخر غير الحبيبي ولكنني رددت بمضض وقلت "سأكلمك " ، ثم كلمتها وتواعدنا بالمساء .

ذاك أول موعد لم أكن متحمسا لألقاك فيه .

أرهقتني سمية حقا . لا أريد أن أخبر الرجل الذي يسكنني هاته الكلمة ولكنني فعلا لم أعد أستطيع ملاقاتها بنفس الروح المتوارية خلف المرفأ كما نعتني .

أول مرة أخاف ملاقاتك سمية ولأول مرة أشعر أنني جبان. حتى بنت الهوى حنان رفضتني وقالت عني أني محترم أتراني كذلك حقا!

أم تراها لم ترد معاشرة روح منهكة تشعرها بروحها التي تتمنى الذهاب مع نورة .

عند الساعة الثالثة مساء تواعدنا بالمكتبة . جئت قبل الموعد كعادتي . دخَلتِ باب المكتبة بخطاك المتمايلة فكنتِ حوراء بحق ذاك اليوم ، ليس ككل يوم .

دقات قلبي كادت تخنقني وأنت تقتربين لأول مرة أخجل منكِ. كم كنتِ حلوة جميلتي .

قالت : أيمكنني الجلوس ؟.

قلت :طبعا .

وفجأة تداركت الدور المنوط بي وقلت : سمية ماذا جرى ؟

_الشرطة استدعتني غدا، أظنها ستسألني عن سمير .

_ربما .

_لا بل أكيد "بلهجة متعصبة ".

__سمية لا تخافي فهذا شيء روتيني وسأكون معك .

انتظرنا صباحا ثم رافقتها حتى مخفر الشرطة فلم يتركوني أدخل وبقيت في إنتظارها خارجا .

وعندما طال غيابها لحوالي خمس ساعات هاتفت حمدي .

طلبته عدة مرات ثم بعدها هاتفني هو ليقول : "أهلا سعيد الرائع ."

قلت : الشرطة تستجوب سمية الآن .

قال : أنا أعلم . لا تخف فبالجزائر من يسكن فلسطين لا يستجوب . هي أسئلة بسيطة وتغادر لا تخف يا مُحب. سأكلمك لا حقا وأغلق المكالمة .

_انتظرت مزيدا من الوقت لأرى نورها يخرج من باب المخفر ووجهها مصفر فهرعت إليها وسألتها فقالت : " هي مجرد أسئلة ، أطلت عنك لأنني كنت أنتظر دوري فقط وصمتت "

قلت : سمية هل أنت بخير ؟ .

قالت: " سعيد لا تخف إن شاء الله خير سألوني عن سمير كما كنت أتوقع وأحسنوا معاملتي أيضا" . ولم أضغط عليها بمزيد من الأسئلة وظللنا نمشي صامتين حتى باب إقامتها وقبل ولوجها استدارت وقالت : "سعيد ...حتى أنا ". ودخلت مسرعة .

المشهد الثالث

"حب من ورق ..."

"إننا لا نحيا لنكون سعداء " طه حسين .

نزلت السلالم المزعجة أحمل روايتي بيد وأحاول ترتيب ملابسي بالأخرى ورنين الهاتف المزعج يستعجلني بالنزول...

سألت موظف الاستقبال عن مضض عن السيد رشدي ،مدير دار النشر الذي جاء بنفسه هاته المرة ليأخذ مخطوط الرواية .

هاهو ذا بسيارته الفارهة وشَعره الكثيف وأسنانه الغير متناسقة والتي تفرض عليه ابتسامة خجولة .

قال وبابتسامة تشعرك أنه يرى الأدب من منظور ربحي

" أأكملتها يا كاتبنا الكبير ".

ثم أخذها وركب سيارته واختفى وتركني مدهوشا ربما لأنه أخذ جزءا مني رافقني عدد تصفحك روايتي ولم يترك لي بدا أن أكلمه عنها حتى .

نعم هي هكذا دور النشر، تعبت لأجد هذا الأحمق ليصدر روايتي ،هي شركات استنزاف عام للكتاب . فقد استهلكت لأجلها كل مدخراتي وراتبي لثلاث أشهر.ربما هو الراتب اللعين الذي قيدني منذ انتقالي للعاصمة منذ أكثر من خمس سنوات بعدما ابتلعتُ كل أحلامي منذ ذاك

الزمن في أن أصبح صحفيا يمكن له لن يتكلم بحرية بعيدا عن المتسع الهلامي الذي رسمته لنفسي بمجموعة قصص أكتبها لأوصف بالتمرد وهذه الرواية التي سكنتها .ولكن ممارسة طقوس نهاية كل مخطوط لي أعتقد أنها كانت كفيلة بالانتقام منه .فبجو عائلي مشحون وزوجة لا تفقه ما أكتب فهي تخالني مجرد رجل تطالبه أن يشعرها بأنوثتها أثناء المضاجعة ويمدح طعامها صباحاً.

لا أخفيك سراً أنني سكرت ليلتها وقابلت مخطوطي الحزين مثلي وبكيت...فعلا بكيت .وكأنني لم أبكِ قبلها .بكيت وأنا عارٍ تماما لأشعر أنني أملك هذا الحيز من الزمن بدون قيود حياتية تعيسة.

وهل عندما نتحرر من بقايا ملابسنا حقا ونكون عرايا أمام تلكم الحقيقة المخيفة التي تقابلنا ليل نهار في أننا لسنا كما نبدو عليه.وأننا نتشح ملايين الوجوه وآلاف الكلمات ومئات الأساليب من الزيف.

أترانا نكذب عندما نكتب ؟.

أم أننا نُلبس أنفسنا واقعاً لبناته الأحلام والتمني لنحرر شعبا كاملا سئم الحديث عن واقعه ؟.

أم أننا نحن أيضا ضحايا هذا الواقع والأحوج لمغادرته لكي لا نُهضم مثلهم ؟

لا أملك كل هذه الإجابات وأنا اكتب ،أحاول أن أقول فقط ما أشعر به تجاه ذاتي العميقة التي تسكنني ولا تسدد فاتورة الإيجار. لأنني أنا من يفتح الباب مستعجلا وحزيناً.

وأنا أكتب هذه الكلمات إذ بزوجتي المملة تقتحم قلمي وقرأتك التي تسال فيها من يكتب الآن ؟

تقتحمني عنوة كالعادة لأنني أُشعِرها أنها لا تنتمي لعالمي .افتعلت بعض فوضى وتصنعها بالغضب وخرجَت ولم تقل شيء .

أرجع إليك أنت يا من تقرأني الآن .

أحبت سمية سعيد كما أحبها هو ولكنها كانت أنثى ،فكانت تحتفظ بمشاعرها وتخاف من الانسياق وراء عفوية سعيد بالحب وصدقه. تخاف أن تحبه أكثر . تخاف من بلده والغربة وتخاف كذلك من أهلها .وتمارس الحب مجبرة .

جالستها مرة فأخبرتني أنها تحبه على استحياء وكنت متواجدا وهي تخبر صديقتها أنها تخاف منه وأخبرته "أنها هي كذلك تحبه " بباب إقامتها .

أما سعيد فقد كانت روحه التي تنثر الحب أينما وجدت لا تؤمن إلا به. يجده سهلا مباشرا .تدفعه تلك القوى التي تسكن الكاتب فيه لأن يعبر عنه بقوة .ولا تستحي مفرداته بأن يغلب عليها طابع الحب. وكانت مليء به .يتغنى بقريته حبا ويكتب هموم الناس عطفا ويمارس عمله النقابي رحمةً .وكلها تصب في بوتقة الحب .

قال لي ذات مساء أنه يحبها .

فسألته :كيف؟ .

فقال :كقصيدة .ننتظر الشاعر لمدة خمس وأربعين ثرثرة وبعض صمت. يقتحم حياتنا بجبروته وكل خيالاتنا التي رسمناها له وقبل أن يتكلم نرسم منه شخصا كان يؤنسنا ونحن نحلم .يُحدث صوت إمساكه لأوراقه ونحنحة الميكرفون هزة بكياننا تكاد تنتزع من أرواحنا المتعبة بالانتظار ونصفق ،لا أدري لمَ .

ربما لنخبره أنه نود أن يكون نحن .يقول كلماته الأولى فتتملكنا حالة من عدم الفهم المقنع بأننا نحبه .ثم تتوالى الأحرف وتشارف القصيدة على الانتهاء وأنا لم أقرر بعد هل أحببت قصيدته أم لا ؟

عندما نحب تختلف مفاهيم المسميات عندنا ونصبح نهتم أكثر بقصصنا الصغيرة ونتعمق بكلماتنا .فتصبح كلمة بنت الجيران توحي باستثارة الغيرة عندها وكتاب استعارته من زميلها شيء يزعج عنفواني كرجل وتصبح حواسيبنا أمكنة لقاء ولهفة .

أعود لك أنتَ يا صديقي يا من تقرأني وسعيد وسمية وكل الحكايات .

الكتابة هي الجرح الأبدي الذي تجرعه من قبلنا ومازلنا نتذوقه مخيرين ، لأننا لا ندري ما ماهيتها بعد و سنموت مثلهم حمقى ومجانين .

أتسال دائما لمَ نكتب ؟

ولمَ وجدت محبرة وقلم بأحد أزقة حياتي ؟

لماذا لم أكن بائع خضر غبياً يؤنس أمه ولا يفكر بالحب ويضرب زوجته البدينة ليلاً.أو طائر يحلق عاليا ليرى خيبتنا وكل حروبنا التافهة .لمَ خُلقت كاتبا يرى نفسه وسمية وسعيد حياة أخرى تؤنس توجعه ؟

أنا لست أنا وأنا أكتب .فالكاتب واهم كبير وأنا أقر لكَ بهذا .فتلك الجمالية التي يتغنى بها ما هي إلا وهم صنعته نفسه الحالمة فلا يرى غير الجمالية عنوانا ولا يمكنه الوثوق أننا بشر نخطئ لنعتذر .

أتذكر أن سعيد لم يرَ سمية وصديقها المغترب أيضا رائد يمسك يدها بمقهى الجامعة ولم يسمع أيضا أنها أخبرته بمجالسته مرارا فحاسة الحب تُوقف كل الحواس الأخرى .ربما يلزمه ممارسة الذكرى بعد مغادرتها ليتذكر كل تلك السويعات التي لم تُشر حواسه إليها .

أتراني أنا وسعيد وكل من يعانق القلم نصنع من أكاذيبنا وأرواحنا تجاه أي امرأة شيئا جميلا .فنغازلها ونطربها أنها سيدة النساء وأجملهن ونعزف نوتاتنا الهاربة من ماديتنا السفلية ونلقي بها دفعة واحدة نحوها .ربما نحن لا نحبها حقا .لأن مفاهيم الحب عندنا نحن من يعانق القلم تمتلك مفردات أخرى .طيبون و ساذجون هم من يكتبون فهذا الزمن لا يسعهم ولا ينتمون لنا أيضا .كاذب هذا الزمن وحقير بالنسبة لتلك الأرواح التي تسكنهم. فالكاتب يمر بحالة عبثية تجعل منه إنساناً من ورق .لا يؤمن

لا بشخصيات روايته ونفسيتهم المثقلة مثله .ويحزن مثلهم ويرتأى عنده الواقع والخيال على مستوى واحد ويجن . وربما يكون هو شخصية من وريقاته أيضا مثلي .

أتراه موجود حقا الحب عندهم ؟

أتراها كما تقول روايات من سبقهم سيتزوجون من امرأة عادية تغزل يومياتهم وتكوى بناطيلهم وتبتسم لهم بحذر مثلي ...؟

فتغلب عليهم طفولتهم ويسارعون لأي شيء مختلف عن تربة الحي ويلمسونه بسذاجة وببساطة لأنهم أطفال يحسبون العالم كله يشبههم وتنتهي قصصهم بضرب أيديهم الصغيرة وإزعاج قلوبهم المنهكة .

سمية كنتِ شيئا آخر يؤنس غربتي أنا كذلك فأنتِ غريبة عن البلد ولكني أنا مغترب عن عالمكن هذا كله وعن نفسي أيضا.ألم يخبرك بهذا من صنعني من ورق وأنني كنت غبيا مثله تماما .

سمية أتذكرين أول لقاء بيننا بعدما أقررتِ بحبكِ لي .

كان لقاءً تراجيديا شعرت بالخجل آن ذاك وكنتِ أنت المرأة القوية .

جلسنا المقهى كالعادة فعادة اللقاءات المصيرية بحياة الحب قدرها تُرسم بالمقاهي والمطاعم وتنتهي هناك .

تكلمنا عن كل شيء إلا حبنا .تهامست نظراتنا لتخبرنا أننا وصلنا مرحلة الأمان المخيفة بالحب .أذكر أن موسيقى الشاب حسني كانت تصنع خلفية غريبة للقائنا .كان يقول "محنتي إلي نبغيها... "وكنتِ تسألين عن معنى كلام الأغنية فقلت لكِ أنهم هكذا أبناء بلدي يصفون حبهم بالمحنة لأنه يثقلهم .

فباغتني بسؤال فيه الكثير من الخبث والريبة :

_وهل من تحبها تُثقلك ؟

_ لا ولكن نحن الجزائريين نسمي من نحب بالمحنة لأننا نخاف.

_وهل تخافها ؟

_ ربما لأننا نخاف أن نفرط بشيء ثمين وجميل يدخل حياتنا فجأة .

_وهل تخافك هي ؟

_لا أدري أسأليها. وضحكنا وتمنينا السعادة لبعضنا وسددنا ثمن الحديث و غادرتِ قبلي وبقيت أنا أحاول لملمة حديثنا وأتساءل هل تخافني ؟.

_لا أخفيك سرا أنا فعلا أخافه وصعب أن أفرط فيه أيضا ،فهو رجل تتمناه كل بنت تعانق المعنى وتتغنى بالجمال ولكن صعب أن أحبه وأنا متأكدة أنني سأغادر يوما ما .

فهو قرار مصيري لا أتحمل ثقله وحدي .فروح سعيد حرة طليقة تنتمي لعالمنا الذكوري الذي يسمح لهم بكل شيء بالحب .

أما نحن فإن حبنا مقيد بأشياء عدة من بينها أننا لا يُسمح لنا أن نحب من نحب إلا بإذن الأعراف والنوافذ المظلمة وهوى القبيلة .

بصراحة لم أرد أن أورطه فيا ...

هو يحبني ولن ينساني بسهولة فأثارت عن نفسي أن لا أدخل واده المقدس ذاك .

_وهل تورطتِ أنتِ؟

_لا أملك إجابة عن هذا السؤال لأنني ما عدت أحتمل التفكير فيه أكثر .

_ولكنه كان سيسعدك .

_السعادة وحدها لا تكفي يا صديقي فأنت حر وطليق مثله فلا تجعلني أظن أن مشاعره تثقلك أنت أيضا .ثم صمَتَت .

فالصمت يجر قلاع الفُراق ،لم أكن أريد أن ألقى سمية اليوم لأن سعيد أخبرني أن لا أكلمها .ولأنها اتهمتني أنني أنحاز لمشاعره .

في الحقيقة إلتقيتها صدفة تمشي منزعجة لوحدها ،ربما تفكر به أو منزعجة من مشطها الذي اختفى اليوم .تلبس شالا ورديا وتنتعل التصنع بالحياة .

نعم هي تلك البنت الرائعة التي أحبها سعيد وأكتبها أنا .

أتراني كما قالت سمية لم أفهمها جيداً.وتورطت بفهم موقفها بسطحية تسمح لنفسي أن أستبيح مساحة الذكورية عندي .لأنني أسكن سعيد ولا أعرف سمية جيداً.هو إحساس رهيب أن لا تفهم شخصيات روايتك الورقية فانزعجت وأطفأت التلفاز ،وصوت الأطفال المنبعث من النافذة يزعجني فرميت أوراقي جانبا وفتحت حسابي لأرى عالمنا بعيدا عن كتاباتي ولأبحث عن بنت تشبه سمية .فها هي الموظفة التي دائما تراقبني من بعيد ونلتقي بالباص ولا تتجرأ على الضغط على زر الإعجاب لأن زوجها ركيك لا يؤمن بالجمال .أمرر قليلا لأرى منشورات المهندسة التي أحبت جارها الذي أطال لحيته وهاجر بعيدا وتغازلني برسائل طفولية .صفحات اتخمت بمناشير الانتخابات المحلية والكثير من الشعبوية المقيتة .

أرهقت عيناي من مراقبة المناشير ولم أجدك بينهم سمية .لأنكِ لا تركبين الباص معي ولا تراودينني برسائلك ولا تكذبين .

سمية لا أخفيك سرا .بدأت أحبك .

لأنك معنى و ورق .

_____

هاتفني أخي سمير ،كانت الساعة تشير إلى الثانية صباحا وأنا ألملم قصاصات المراجعة .هاتفني برقم غريب .

_ سمية.

_عرفته من صوته الذي أشعر بكيمياء الخوف بنوتاته

_ سمية.أنا بخير أخبري أبي هذا

_أين أنت ؟

_أنا ببلد التوحيد لا تخافي .

_أين ؟ متى ؟

_طن ...طن ...طن .(انقطعت المكالمة وفَتحت جرحا جديدا يزاحم جرح حب سعيد).

لمَ تفعل بي هكذا يا سمير ...كنت دائما مُتعباً أتذكر أنك كنت تضربني لا لشيء إلا لأني حظيت بحبة شوكولا من أمي فلم تكن تريد الشوكولا بقدر ما كنت تتلذذ بطعم بكائي ...أين أنت يا أبي ،يا من كنت تخبرني دائما أن سمير رجل ويجب أن أساير جنونه. أفكل الرجال يجب أن نساير جنونهم هكذا ...

أين أنت الآن يا سعيد لأرتمي بحضنك وأبكي .أبكي لأني وحدي رغم حبك لي .

و بقيت مستيقظة حتى الصباح ولأني لا أعرف شخصا غير سعيد يمكنه مساعدتي.حتى رائد ذاك الشاب السوري الذي جالسته مرات عدة ويقاسمني حجرة الدراسة ،كان رجلا انتهازيا يتشح الشحاذة بقضية بلده والحال الذي آلت إليه وأنا أتقزز من هذا النوع من الضعف .

لم أهاتفه ذاك الصباح بل توجهت مباشرة للمقهى الذي يحتسي عنده فنجان قهوته ويكتب تغريدته الصباحية التي تمنحنا الحياة يوما كاملا رغم أني أعرف أن قلبه موجوع .

بدون مكملات كلامية وتنمق وسلام .قلت: "سعيد لقد هاتفني سمير .فلم يقل غير كلمة :"جميل ".

ثم أجلسني لأنه يحسن قراءة العيون الخائفة جيداً وطلب قهوة لي و أذاب ثلاث قطع ونصف سكرا بالفنجان .

_سعيد .قال إنه ببلاد التوحيد أتراه غادر اليمن ؟ وأنا بشدة الخوف، فعلا أردته أن يحضنني عند تلك المساحة من الارتباك .فبادر هو وكأن عيوني وشت بي وأمسك يدي بقوة وهو بكامل الغضب .

وقال :"أنتِ بخير .أنتِ معي فلا تخافي لن أسمح لأحد أن يخيفك وإن كان القدر .كوني لي الآن سمية " .

_____

_بعدما اخترت قطعة "كرواسون" كبيرة فحلوى "الكرواسون " ببلادنا غنيمة حرب من العدو الفرنسي مثلها مثل اللغة كما قال كاتب كبير ببلدي واتهم بالخيانة .

اتخذت ركنا منزويا ويجالسني الحليب المسمر بالقهوة الذي نشربه صباحاً نحن الجزائريين والكثير من الإزعاج من نادل المقهى وهو يحاور صديقه بصوت يجعلني أجن ويرى هو أنه يسمعني صوت المثقف الذي يسكنه ويشاركني نفس الموجة .

لأول مرة منذ أن سكنت العاصمة أنهض باكراً وأنا لا أفكر بفتاة أحلامي ولا شخصيات روايتي ولا شتمت الحكومة .

ولأنني البارحة ذهبت عندها بمكان عملها وأخبرتها أنني أحبها ...

نعم هي الفتاة الغريبة عن العاصمة والتي لا أعرف لم أقررت بحبي لها مرتين رغم أنها لا تنتمي لعالمي فقد كان همها الوحيد أن تحب فنانا كوريا أو تقرأ رسوم "المانغا " لم نكن نشبه بعضنا لكنني أقررت بحبي لها مرتين .نعم مرتين...ربما هي نزوة ؟ ربما حب.؟

ولكنها حقا هزت عرش الصحفي الذي يسكنني فقد استقصيت بملامحها كل بلاد "جن جن " وانتهت قصتنا ...

راسلتها البارحة بعدما أهديتها مجموعة قصص وكتاب "مانغا " بنكهة جزائرية .

وقلت :" سيدتي ...أحببتك حقا ومازلت أحبك .ربما لست أجمل النساء ولكنني أحببتك وفقط .سنلتقي ،سنلتقي وإأخبر أولادي وزوجتي أنني أحببت هذه البنت يوما ..."

ووضعت الرسالة بأحد الكتب ،ولأنني مجنون ولم أرد للقائنا أن يكون مجرد ورق وجفاء .فاجأتها بمكان عملها فوضعت يدها على فمها حين رأتني ...هو شيء أحبه فيها حين تضحك أو تتعجب تضع يدها على فمها لتخفي مشاعرها .ربما ...

وأنا بالطريق لها كنت أستجمع كل الكلمات لأقولها .ولكنني حينما دخلت وادها لم أستطع إلا قول "أحبك ..." وسلمتها الطرد وغادرت .غادرت ومعي قطعة جميلة من حكايات أنا اكتبها كل يوم وأشرب معها القهوة و"الكرواسون " ونظرات النادل الذي يحبني .

غادرت لأنها رفضتني قبل ذاك اللقاء الأخير ولم تقل يومها إلا "إذا كان هذا قرارك أحترمه..."وكأنها تنتظر مغادرتي .

نعم ...فعلت الشيء الذي يريحني ولأنني لا أؤمن بمنتصفات الحب وإسكانه الحواري الضيقة .آثرت المغادرة وحمل لواء حكاية أخرى وأستفيق لأحكي لكَ هذه القصة التي تقرأها الآن بروايتي .

فلم أعد مضطرا أن أنتظر ركوبها بالباص ولا هروبي من العمل والمرور بمحاذاة عملها ولم تعد للبناية معنى لأنها حجر .وتمنت أن تراني كاتبا كبيرا ولهذا أنا أكتبها الآن .

_سمية ،لم أعد أؤمن بحب سعيد لأنه ينبت المزيد من الجراح ونهايته معك مماثلة لحكايتي مع "ن" ولا أود إخبارك باسمها أيضاً لأنني أخبرت سعيد قصتنا .

ولعلها تقرأ روايتي ذات مساء وحدها أو مع رجل لن يحبها مثلي .

_يا هذا يا من أسكنتني روايتك وأحببت فيا المعنى والورق ما جعلني أتهرب من سؤال سعيد "أن كوني لي " .لأنني أشعر بتلك البنت الصادقة التي أحببتها.فمفاهيم الحب لدينا نحن معشر الغرباء عن العاصمة مختلفة عنكم ،فهي لم تقصد جرحك أيها الكاتب ولم تكن حجرا بل كانت صادقة ولم تهديك خبرا جميلا تكتبه كعمود لحكاياتك التي لا تنتهي .

فعلى روحك السلام يا من تروينا الآن أنا وسعيد و "ن" .

فكن أنت يا هذا كما عودتني دائما ولا تحاول استعارة قلوبنا الورقية .ولا تجعلني أمارس عادات النساء عندكم وتتلبسني الغيرة .

_____

_ربما استعجلت عندما أخبرتُ سمية "أن كوني لي " أسميتها بين رسائلنا "سيدة القهوة "قبل أن أكنيها بمعنى أروع يستعيره من يكتبني ذات مساء ولم يكن قدري مخطئ عندما ألهمني هذا الاسم .فاستعجال البوح وإذكاء نار اللوعة يجعل القهوة تحترق حتما .فالأنثى كالقهوة تحب نار الكلام الخافتة وإطالة الممازحة ومداعبة أنوثتها باستحياء حتى النضج .

لم تكوني استثناء يا سمية فكلكن سواء .حتى خِلتني بعدك أكفر بكل رسائل الحب ولا ألقي كلاما تحسبه الذكرى حبا ولو عابراً. وسئمت وريقاتي المتخمة بتلك المفردة .وكنت كل ليلة بعد مغادرتك أتصفح رسائلنا وجفاءك بالكلام .حقا كم كنتُ ساذجا وأنا ألقي بحبي جزافا أمامك .

ولم أرد إخبار سمية أن الشرطة تراقبها لأخيفها فاختصرت كل المشاعر بأن لا تخافي فأنا معك. ولأنني أؤمن بأنني الرجل الوحيد بعالمنا الذي ترتاح عنده ،ربما كنت أود أن تحبني ولكنه القدر الذي يفرض مسمياته ويضيف نكهة بطعم الظلم. ولكننا نستكين بعدما نُشفى بجبروته. فلم أجد مهربا ومنجى إلا الكتابة .فنحن لا نكتب لنحيا كما يقول معظم من يعاقرون القلم بل أنا أكتب لأموت ...

نعم أموت مع كل حرف أخطه لأنني لا أكتب لكَ أنتَ يا من تقرؤني كشخصية من ورق فقط ،بل أكتب لنفسي المثقلة بجراحها والمولعة بسمية .

_صديقي سعيد .أنا كذلك مرهق ،فربما أنت ستستكين برف حزين مثلك يوما ما .وستُذكر بنهاية فهرس روايتنا معا بخير .ولكنني أنا صديقي سعيد من يموت حقا يوميا .فقصتي مع الورق بدأت لوحدها ذات ظهيرة وأنا طالب .يومها كنت أكتب يوميات ساذجة وأحفظها بكراسة كتبت على

غلافها "أن هذه الكراسة خاصة " ولم أتوقع يوما أن تكون جروحي مشاعا مؤلما ،ولم أكن أريد أن أكون كاتبا أو حتى صحفيا عالمه ملئ بالحروف والمعاني والألم .ربما كنت أتمنى أن أكون مسرحيا بسيطاً يؤدي دوره بالخشبة وينزل ليزور السوق القريب لبيته ليشتري وجبات باردة ويحلم .

ربما كنت أتمنى أن أكون سياسيا سمجاً يترقى كل بضعة أشهر لأنه يفهم برنامج الرئيس .لا طالما حلمت ببنت تبادلني نفس الإحساس ونربي بناتنا على إسلام سياسي لا يؤمن بالحدود .

صديقي سعيد ...

لم أعد قادرا على تذكر ما كنت أود أن أكون .كل ما أتذكره أنني متزوج الآن من امرأة عادية تكبرني بعامين ولم نحتفل بعيد زواجنا يوما وحددنا أعرافا خاصة بنا بالبيت .أما الشيء الوحيد الذي تركني أعيش لأن ألقك هو ابنتي الوحيدة "حوراء " بالرغم من أني حطمت قلبها ذات مساء وقد أخبرتك بهذا إلا أنها تحبني وتفقه عالمي وتنتشي بكل عمل أصدره ،صوفية مثلي ولا أخفيك سراً أننا نجمع المال سويا لنحظر بنصف تشرين لمولوية مولانا جلال الدين بمدينة قونية ووعدتها أن أرقص معها وندور كالمولويين حتى نبلغ النضج ولم نخبر أمها طبعا .

فأكمل حكايتك سعيد واتركني أعيش لأصدر يومياتك بكتاب أكتب على غلافه "ذكرى العائدين من الورق " .

_مر شهر وأنا أجتنب الاقتراب منها ،هو شهر بتعداد البشرية أما بمقياس الفُراق فهو شيء آخر لا يقاس إلا بالوجع .وتركن عقاربه عند الصبر كل حين وتملأ فراغاته جميع التساؤلات.

لم أعد أستطيع الابتعاد وأكابر ولا أستطيع الاقتراب فأحرق ولأنني لا أجيد غير الكتابة .

كتبت بصفحتي ذاك المساء المتعب :

" هو القدر الذي لا يتركنا نمارس أحلامنا كاملة ،وينتشي بانزوائنا عند منتصفات الحكايات .هو القدر الذي نتشحه مرغمين ونسلم عنده .فكوننا مؤمنين به يحتم علينا الانتظار .

من أنا لأحاول الإمساك بمفرداته .ألست ككل المُسَلمينَ رقابهم عنده .أم تراها مجرد أفكاري التي اتخم بها قلبي هي من يجعلني أسابق شيء يسكنني وأعتقد أنها الحقيقة الجميلة التي أتمناها .

من أنا لأمارس الكتابة وأفكر في كل هذه الضوضاء وأصبغ العالم بلونها .أليس من الواجب أولا أن أسأل هل يحق لي أن أسأل كل تلك الأسئلة ؟

من أنا لأحب تلك الروح وأتمناها لي ؟

أتراها مفردة "لي " تلك تتملكني كعربي علمه أجداده أن ال" لي " لا يجب أن تخرج من حيز خيمة القبيلة وما الداعي وراء التستر وراء جميع هذه الأسئلة للهروب من الأنا التي وجب البحث عن حكايات تسكنها ...

حقا هي وأنا وكل الحكايات نسكن منتصفات الفوضى ونحب ذاك البحث المتواصل عنا وبيننا ...

أتراه القدر هو كل تلك الكلمات التي نملك ونحب ؟

أتراني أريد ذاك القدر الذي أصنعه وأحبه ؟

وفي الأخير عندي أقول بسذاجة بائع الخضر :"أتراني أحبها؟".

-سمية لم يعد هناك مفهوم للأمكنة يحطمني ،أذكر أنني سافرت عند بعض الأصدقاء لأمارس العبثية مرغما .وألج عالم المرأة وأشاهد غيرك من النساء لعلي أنساك وأحاول أن ألوك بعض المفردات بوريقاتي ليحملها غيري ولا يرتكب نفس اللعنة .لعنة الحب والخوف معا .

لا أخفيك سرا، بل سافرت لأجل نفسي أيضا لأبحث عن ذاتي وسط المدينة .سافرت للعاصمة فهي المكان الوحيد الذي يمكنه أن يحتويني وكل تلك الفوضى التي تسكنني ولأتقدم لعمل بجريدة وطنية. زرتها وأنا مثقل بكِ وبذكرانا وأحمل كل المساحات بينهما .

عالم العاصمة مخيف كما قال صديقي علاء ،ذاك الشاب الذي يحاول التكفير عن خطاياه لخيانة حبيبته بمزيد من الخيانة ويخبر كل بنت يجالسها أنه مازال وفيا لحبه القديم ،أتراه يحبها حقا ؟

هو أيضا يسكن المنتصفات مثلنا .أتراه قدر الحب أن يولد بالمنتصفات .كنت أتسكع صباحا بالمقاهي و بباصات النقل أتبصر بأوجه العامة وأكتب ملاحظاتي وأتفرس بتقاسيم يوميات الشعب. وألتقي بعض الرجال الذين يقاسمونني نفس العناء وأخيرا بليل أكتب جراحي بصفحتي ،ربما لأترك شيئا ما يربطني بذكراك وحيزا أمني النفس أن ترينه.

_لمَ غادرت يا سعيد ؟أصدقني القول .

_أنت أدرى يا هذا. غادرت لأنني خفت من مغادرتها واجتاحتني العديد من الأسئلة عن نهاية حكاياتنا معا وأردت أن لا أراها و لو لفترة .

_ولكنها تحبك .

_لا أظن هذا فالحب وإن تزاوج مع الخوف فرخ شيئا يكنى بالارتياب،وهذا الإحساس يقتلني ،حتى عندما بادلتني نفس المفردات قالت "حتى أنا ...سعيد" ولم تقل أحبك سعيد .

_سعيد ,ما بالنا نستعجل القدر الذي نخافه ونتبنى السوداوية التي تسكننا نحن المغاربة كما سمتنا سمية .

صديقي عندما كنت أجالس جدتي وهي تسامر العجائز بلحظات الفرح ,وما إن يعانقن لحظة ضحك هستيرية حتى يتسمرن لوهلة ويقلن سويا "ربي يجعلها ضحكة خير " .وكأنهن يخفن لحظات السعادة .السعادة بقاموسنا نحن المغاربة تشعرنا أنها تُخفي ورائها العديد من التعب فلا نصدقها بالمطلق .أتراها ذهبت مع انكساراتنا وحروبنا الأبدية التي لم ولن تنتهي إلا بهروبنا .وأنت الآن يا صديقي الورقي تعزف نوتتها تلك .

_ربما ...ربما يا صديقي.

_اقتربت نهاية السنة واختلطت مشاعري بين مغادرة سمير وكذا التهرب المفاجئ لسعيد وهاتف أبي الأخير.فقد أخبرني أن السلطة بغزة أخبرته أن أخي سمير غادر الجزائر وقد شوهد بسوريا مع المقاتلين هناك .ولكن الذي لم أستطع إخفائه عنك ،أنه قد قرر أن أكمل دراستي العام المقبل عند بيت خالتي ببيت عمي مصطفى وابنه المزعج أيمن الذي خطبني ذات مساء ورفض أبي لأنه لا يؤمن بتستره وراء سلطة أبيه، وبت أعانق

اللاشيء والوحدة ومارست نفس التجاهل تجاه سعيد وآثرت العادية من الطقوس بيومياتي ،وبدأت بالخروج لوحدي لسوق المدينة والتسكع أحيانا بالمطاعم السورية التي انتشرت بالجزائر كالفطر وأشرب القهوة مرغمة وأتذكره عندها. وأخيرا بالليل أسرق النظر بصفحته لأنه كان حقا صادقا بحرفه ويواري إحساسه ويراسل روحي المتعبة مثله .وباتت الرسائل المشفرة التي نكتبها بصفحتينا خبزنا اليومي الذي ننام معه .

_سمية لقد التقيت اليوم بجلسة أدبية بروح تشبهك .وحَاولت الاقتراب من عالمي أو بالأحرى أنا من حاولت أن أتعربد معها كما تعربدت مع سعاد وأبت .وحاول أن أعزف موسيقى تنسيني ذكراك .وهل تجوز كلمة ذكرى هنا أو أقحمتها عمدا لأنني أريد ممارستها ،هي مفاهيم تتقاذفنا برضانا لنعيش ما نخاف والهروب .

_أنت تزعج حبكما هكذا يا سعيد ،.هل ترانا نحن المغاربة جبناء بالحب فإما نسكنه ونتملكه كله أو نهرب كلنا ،لمَ لا نؤمن أننا كذلك ؟

_نحن لسنا جبناء يا هذا .فأنت أيضا تسكن عالمنا المغاربي الذي يتملك المفاهيم ويزعج الآخر .لمَ لا تقل أننا نريد من يتملكنا كلنا .وأريد أن أمنح سمية قلبي كله ولا أحتفظ لغيرها بشيء حتى هذه البنت التي تشبهها .

بصراحة لا أدري ولكنني خائف أنني أحببتها بعمق وأخاف منك أنتَ أيضا .فرفقا بي يا من صنعتني من ورق .

عندما جالست سعيد انتابتني هالة من الخوف أنا أيضا .فوضعت أوراقي جانبا وخرجت لشوارع العاصمة ،بعدما هاتفت رئيس التحرير أنني لن أحضر اليوم وآثرت المشي هذه المرة لأتحرر من هواجس سعيد التي تتعبني .

وتساءلت كرجل يصنع الحكايات .أترانا نحن بالجزائر حقا كما وصفنا سعيد ؟

أتراني جبنت أن أجيب عن تساؤلات شخصيات روايتي هكذا ؟

أتراني أنا أيضا موجود بدائرة من دوائر الورق التي تحاصرنا وترغمنا على الكتابة ؟

أتراني أحب سمية أنا كذلك ؟

لا أدري ربما يلزمني من يكتبني أنا أيضا ؟ ربما .

لم أفكر إلا بتساؤلاتي التي استفزها سعيد وكتبتها أنا وبت هائما على وجهي ولم أستفق من حالة الهذيان تلك إلا وأنا جالس أمام نصب الأمير ومقابلا مكتبة العالم الثالث واستعملت الجريدة لأجلس عليها بعدما قرأت عمودا تعودت على قرأته وتؤنسني قهوتي وظل الأمير الذي يمنع عني أشعة الشمس وأتبصر برواد المكتبة القلائل .وفجأة سحبت قلمي وكتبت :

"سمية يا من أسكنتك وريقات روايتي هذه .وخفت أن ألطخ تفاصيلك الجميلة وضحكتك التي أراها كلما بدأت الكتابة وشالك الذي تضعينه كبنات لبنان ومشرقيتك المتحررة التي لا أجدها بزوجتي ،وعفوية تسكنك بعيدا عن العمق الذي سرى على لساني وسعيد ...

سمية أتراني أحبك ؟ "

ثم مزقت الورقة بسرعة بعدما أستسمحت الأمير ورميتها بسلة مهملات بجنب النصب وعدت للبيت بعدما اشتريت قليلا من الكتب ...

بعدما سئمت المكان كتبت بصفحتي :"عندما نقف عاجزين عن اقتلاع الأشواك من أرواح من نحب ونكتشف أننا مقيدين وتبقى أمانينا معلقة بين كفي القدر ولا نلامس أوجاعنا حتى لا تؤذينا ساعة اليد نتعب حقا ".

ثم مارست طقوسي كأنثى ورجعت لكراسة الفصل الأخير من الدراسة ومن الحياة هنا بالجزائر .وعند الصباح وأنا أهم بترتيب نفسي للمغادرة إذ أجد رسالة من سعيد يقول فيها :

" سمية هو القدر من وصفته ليلة البارحة وساعة اليد التي تستعجلنا .سمية فلنستسمح القدر ونعزف نوتة التناسي ولو قليلا. سمية أريد أن أراك اليوم يا سيدة المعبد "

لم أتمالك نفسي وأنا أقرأ حروفه تلك ،فقد كان لزاما أن ألقاه لأنني حقا اشتقت له رغم أني لم أعد أستطيع أن أتعب قلبي أكثر به فقدري المغادرة.وكنية سيدة المعبد التي اختصرت كل المعاني بيننا .

لم يرد عمي الطيب صاحب المطعم خدش حياء سمفونية الفراق التي كنا نعزفها معا واكتفى بالإيماء بوجهه والإشارة بيده أن قد فهِم...

فقد وجدته ذات يوم يعزف الكمان حزينا لوحده وعندما رآني توقف عن عزفه وقال "سعيد إن جميع الحكايات تنتهي بالفراق " ثم واصل عزفه .

فبادلته نفس الإيماءات أن قد فهمت ما كان يود إخباري يومها.

_سمية .أنا آسف .

_لا عليك سعيد ،بل أنا من يجب أن تتحمل مغبة ...(ثم صمتت).

ومحاولة مني لأن ألملم جراحها قلت "أأعجبتك كنيتك ؟"

_نعم (بابتسامة جميلة).

-سمية .إن قدرنا هو الحب .والحب هي المفردة الوحيدة التي نمارسها مرغمين وتجبرنا أن نؤدي تحيتها .قلت لكِ أنني أحبك وسأكررها هنا رغما عن تكملة قصتنا ،نعم أحبك يا سيدة المعبد .

_وبوجه يملؤه الخوف قالت "سعيد إن موعد الطائرة هو السابع من يونيو أي بعد عشرين يوما فقط".

_فلم تسعفني قاعة المطعم ولا الطاولة المنمقة بيننا فارتشفت اللامبالاة وابتلعت جميع الخوف وكرجل مغاربي يصارع وجوده قلت "وإن سأظل أحبك ...".

فابتسمت مرغمة وقالت :" سعيد ...ربما أنت الرجل الوحيد بهذا الكون الذي استطاع أن يحتويني ولكن سعيد ربما ما عدنا نلتقي ...".

_لمَ ؟

_لأنني سأكمل دراستي بالأردن .

_يعتصرني الأسى قلت :" هو القدر سمية ..هو القدر الذي يهزمنا دائما ."

فأمسكت يدي وقالت :" أنا أحبك أيضا سعيد ولكنه القدر كما قلت "

فارتعشت فرائسي وخفت .ثم قلت لها "سمية هل هناك أخبار عن أخيك ؟"

_" لقد اختار مصيره و أبي علم بهذا ".

_حقا ،هي مصائرنا التي تصنعنا ونصنعها . وإذ بنادل المطعم يقاطع مصائرنا نحن أيضا ويضع كأسا عصير وكأن عمي الطيب كان يسمع دقات قلبينا معا وتدخلت طلبيته بالوقت المناسب لنستريح من التعب .

المشهد الرابع:

"صناديق البريد ..."

"يا طير ياطاير على طراف الدني لو فيك تحكي للحبايب شو بني ..."
الست فيروز

_لم تسعفنا المدة التي تبعت آخر لقاء لنا بمطعم عمي الطيب وكنت أجبن من أن أودعها بالطائرة وكانت أجرأ أن تستودع رسالة لي عند صديقتها .

واتخذت قصتنا فصلاً آخر هو فصل صناديق البريد .وانتهى الفصل الدراسي ورجعت لقرية شلالة العذارى . لأغتصب عذرية الورق وأعاشر الحسرة والصمت وأغير عاداتي من شاب يحمل حقيبته والغربة إلى رجل يحمل هم حب لم يكتمل ويلعن الذكرى .ولكني راسلتها بعد شهر من مغادرتها...

" سمية...الحب هو كذبتنا الكبرى كما قال درويش .أتراه درويش كان يواري جميع خيباته وذكراه وصوته المُتعب خلف هذه العبارة .أم تراها جميع القصص التي تستحق منا الحزن قدرها الكذب .

سيدة المعبد ...

ربما أسكنك القدر أحدى كذباتي الحلوة ومارست طقوسكِ بكل خوف .وكتبت تراتيل يومياتنا كثيرا بصفحتي وتجملتِ أنتِ بوشاح الكبرياء .وتحالف سمير والقدر ...

سيدة المعبد ...

سأضل أحبك وسأكون وفيا لذكرانا وكرجل مغاربي يؤمن بالتملك كما وصفتني ذات مساء .سأتملك مساحة الغياب وأراسلك دائما ..."

_نهضت متأخرا ،ضجرا تظهر علامات التعب حول عينيا .أشعلت سيجارة كانت تنتظرني من البارحة بالطاولة لأحرق يومي من بداياته وتذكرت مقالة كان من المفروض أن تخرج بعدد اليوم ولكنني لم أبعثها عمدا وهذا سبب كل هذه المكالمات الفائتة على هاتفي .

توجهت مباشرة نحو الطاولة لأرى ما كتبت البارحة فوجدت مغادرة سمية والرسالة الأولى لسعيد ووقوفه كرجل مغاربي يحاول تملك الغياب .توجهت نحو المطبخ لأصنع فطورا وأشعلت نار القهوة على مهل فتفاجأت بقارورة زيت زيتون وأخرى محشوة مادة اقتربت منها لأرى أنها محشوة سمسم .لعل زوجتي اشتهت السمسم ،أتراها بالحمل ألم تيئس هذه الآن ،هذا حملها السابع فانتابتني وحشة لبنتي "حوراء " فقد كانت تعشق صوت فيروز صباحا ولا تخرج حتى تمطرني كلمات جميلة مثل ابتساماتها البريئة .اتشحت بدلتي الجديدة وكنوع من التفاؤل والعادة لبست قميصا زهريا

يشبه قميص القديم وأرسلت بعض المجاملات الصباحية كنوع من النفاق المجتمعي وكتبت بصفحتي: " إلى سيدة المعبد ...

إلى جميع النساء التي صنعت قلوبهن من ورق ...صباح معطر بزهر اللوز ".

ثم توجهت صوب الحافلة لأركب مع العامة وأجمع المزيد من الحكايات وأحاول إكمال المقال المتأخر حول ملتقى أقيم من أجل أسباب تفشي العنوسة ببلدي ومن دواعي السخرية أن الدكتورة المشرفة على هذا الملتقى كانت مطلقة. الطريق من بيتي بسيدي موسى إلى غاية مقر الجريدة بعيد ولهذا آثرت أن أقترب من شيخ وأتحرش بذكرياته بعدما ألقيت التحية العاصمية الجافة قلت :

-"تغيرت البلاد سيدي فعلا ".

فاستدار بعدما كان خياله يسوح خارج النافذة وتبصر ببدلتي التي لا تناسب الباص ولم يجب .

وأبى الصحفي الذي يسكنني إلا أن يستنطقه كنوع من التحدي وكخطة خبيثة عرضت عليه أن يجلس مكاني ليخفف من تعبه وحمله لتلك القفة العتيقة التي بيده .

فقال بلهجة عاصمية عميقة :

"وليدو باغي تحكي وفرات .أنت ماشي من هنا ".

ثم داهمني بسؤال عن وظيفتي فأجبته. فصمت وكأنها إشارة لنهاية الحديث الصباحي .ولكن وما إن هم بالنزول استدار وقال :

"ولدي هذه هي البلاد" ورفع قفته العتيقة تلك قليلا فنزلت أنا بالمحطة التي تليها وقد استجمعت خطوط مقال الغد "البلاد والقفة العتيقة "

_صوت الطبلة يهز ذواتنا ،وأنا أراقص بنات الجيران حتى التماهي .فاليوم عرس جارتي خولة تلك البنت الكبيرة بالسن والتي كنا نتسامر عن حضنا العَثر مع الرجال قبل مغادرتي للجزائر .وإذ بها اليوم تتزوج رجلا أحبها وأجبرت مشاعرها على ذلك فهو نعيم بائع الخضر بالمخيم .اختارت خولة أن تعيش كامرأة ثانية وتعيش الحب حتى مواراةً .المهم كما قالت أن لا تموت ولا تمارس الحب. وإذ برسالة سعيد تضئ هاتفي .هي أول رسالة منه منذ مغادرتي الجزائر ذاك البلد الذي لم أشفِ غليلي باكتشاف كل سحره فقد غطت حكاياتي أنا وسعيد جميع الظلال الأخرى ولم تترك بدا لنا لنعيش أفضل .فتسللت لباحة الدار وتحت شجرة الزيتون الوحيدة لأعيد شريط كلامي مع سعيد وأقرأ رسالته التي لخصت كل شيء .وأسأل نفسي أتراني حقا عشتُ كل هذا الزخم من الحب لفترة زمنية كتلك ؟ .

أأحببته حقا ومنحته خافقي كله ؟

أم تراه كان المرفأ والملجأ المريح لروحي المتعبة وأتعب نفسه لأجلي أيضا ؟

أتراني كنت له حقا ؟.

وبعدما لملمت روحي ومسحت بضع دموع أبت إلا أن ترافقني اشتياقي له ثم كتبت له :

"إلى القدر الذي جمعنا ذات مساء وأنا أسأل عن أوراقي ،رفقا بنا .

سعيد ...

كنتَ دائما تخبرني عن مفردة القدر وأنها تلك القوى العظيمة التي تهزمنا بالأخير وأنا أراسلك الآن وكلانا يرقع قدره ليحيا بعيدا عن الورق والكاتب الذي أبى إلا أن يفرقنا ويذهب ليحتفي برواية أخرى ويمارس سلطته على شخوصها ويوقع "فرمان " الهروب أيضا دون أن يستشيرها .

سعيد ...

كنتُ بنتا عادية وصنعتني بقلبك الذي لا يؤمن إلا بالحب إلى موسيقى أنثوية جميلة تنام معي كل ليلة هنا .

سعيد هي أقدارنا أن نبتاع مفردة المغادرة من سوقها .

سأظل أصلي بالمعبد الذي وشحتني سيدته ...

سعيد كن بخير لأجلي. ..على روحك السلام ...

من سيدة المعبد "

_____

سمية لم تخبر سعيد أن أخاها موجود بسجون النظام السوري ولم تخبره أيضا أن أباها منحها الاختيار بين البقاء بالجزائر لإكمال دراستها وبين المغادرة للأردن .وذلك لأنها تريد اغتصاب بعض الحكايات ،وربما اتشحت حكايات أخرى كمرض أمها ووفاة عمي رمضان وتغيرت بعض ملامح المخيم وغمرته خيوط الكهرباء حتى عاد كعش عنكبوت .وحتى باحة بيتهم قضمت مساحتها وأصبحت الزيتونة الوحيدة تشعر بضيق الأرض كقلوب أهل غزة وباع أبوها بعض غنيمته .أتراها بنت المخيمات تلك من تسكن كم من وطن وتحمل جواز سفر ملطخ بختم الصهاينة والمثقلة بعالم ذكوري جعل أول حب يهزها و تهزمه معتقدات أخيها وتلقي بها عند بيت خالتها ونظرات ابنها أيمن وكأنه نوع جديد من التملك ،فسعيد كان حبه صادقا وفرضت أمازيغيته تملك قلبها وبين تملك مادي يتبناه أيمن ويحاول إثارتها بتغيير سيارته وخالتها التي تعزف نوتة العجرفة وتجرها معها لأعراس علية القوم وحفلات السفارات وجمعيات التبرع ولم يكن عزاؤها إلا زوج خالتها الذي كان يشجعها على الكتابة وتغمرها روحه المتخمة بهَم وطن وقضية أنهكت جسمه النحيل بمختلف أنواع الأمراض

ولم يخبرها هو كذلك أنه غير دراسته من الحقوق لأنه ما عاد يؤمن بهذه المفردة ودرس الإعلام لعله يمنحه قسطا أكبر من الحرية بالكتابة. وأنه

أصدر ديوان شعر وأصبح صديقا وفيا لحمدي رغم اختلاف توجهاتهما وباتت جلسة البحر بينهما مقدسة وتوفى عمي سالم بائع الكتب وباع الورثة المكان ليحول لمركز تجاري .

وأتعبته عدة رسائل لم ترد على لهفته عنها وتركته مشدوها يكابد ذكرياتهما معا وحده.ولم تشفِ غليله بالكلام وتحالفت هي والأمكنة المكتظة بحكاياتهما ولم يستطع إخفاء حبه لها وتوالت رسائله ولم تجب وكأنه يراسل امرأة لم تحبه قط.فلم يزعجه هذا الجفاء وكان عدد اشتياقه يمارس الكتابة عنها وصنع منها معنىً يتماهى معه ويتركه يعيش حينا ليستطيع الكتابة والكآبة معا واتخمت صفحته بمراسلة ذاك المعنى حتى أصبح يُعرف بعاشق سيدة المعبد وتتلصص النساء لتعرفن من هي واستهلكت تلك المفردة بين رسائل العشاق وباتت تلك لازمة يحبها هناك وأرتاب سعيد بين مفردتين ,بين أتراه مازال يحب سمية أم بات يحب ذاك المعنى .وبقي يمارس عادة مراسلتها لعام ونيف .

وبآخر رسائله قال :

"سيدة المعبد ...

أراسلك اليوم بعد كم من رسالة لم تردي عليها ،لم أسئم لأن قلب المحب لا يسأم .أراسلك من بلد آخر لا يؤمن بمفاهيمنا العنيدة وآثرت أن أهرب مع وريقاتي لبلد مجاور مازال يلعق جراحه بعد أربع سنوات من ثورة بائع الخضر .

حاملا ذكرياتنا وبعض حزن ووريقات أكتبها لأجلنا .هي الأمكنة يا سمية فبعضها لا يحتمل جميع خيبتنا لأن كل الأزقة اتخمت بحكاياتنا .وآخر أجالس مقاهيه المكتظة بحكايات النساء فمقاهي بلدي لا يحجبها جنس يضع تبرجا غير تبرج العاطلين عن العمل .

لا أدري أين أنتِ الآن بالضبط ...ربما بالأردن ربما بمكان آخر .أرجوك لا تخبريني ...

وأعدك أنا والكاتب الذي يسكنني أن أكتب شيئا لأجلنا ...

المهم كوني بخير لأجل حبنا "

وواصل سعيد حياته وتخرج من الجامعة كرجل يتجرع الذكرى ومازال يمارس عشقه للقلم كعادته ولم يحب بعدها ولم يسمح لذاته المثقلة بها بأن تمنح خافقه لغيرها وبات هائما لا يمكث بعمل أكثر من عام

لأنه لا يؤمن بالأمكنة وأصبحت بعض كتاباته تنشر بصحيفة محلية ثم اشتغل بنفس الصحيفة .

أما أنا يا من قرأت بوحي عدد تصفحك وريقاتي فقد أحكمت غلق الباب جيدا لكي لا يزعجني أحد ومرت تلك الشخوص التي صنعتها من ورق بمخيلتي كأنني أراها .

فسعيد ذاك الشاب المغاربي الذي تعجبني طريقة وضعه لشاله الآجوري وعشقه للمقاهي وحبه الخالد لسمية وذكراها .

وسمية أو كما يروق لسعيد أن يناديها بسيدة المعبد، كنت أعيش مع تفاصيلها الصغيرة وغربتها وحبها الخائف لسعيد وسفرها من الأردن .وأقحمت عمدا العديد من الحكايات لأنني أنا وأنت يا من يقرأني الآن وكل من يعشق امرأة يحترق مع حكاياته.فلم أستطع أن أكتب كلمة نهاية مخطوطي وبقيت أحدق برزم الورق المكتوبة وبعد كم من الاستياء والخوف ودموع أبت إلا أن ترافقني نهاية العمل فلم أكتب إلا :

"إلى سمية تلك البنت الغزاوية التي رسم الورق أقدارها ولم تسعفها الجزائر أن تحب وحرقت معتقدات أخيها سوريتها وأزعجها أيمن أن تكمل دراستها بالأردن ...

إلى وشاح تلك البنت الذي تشبثت به وقدماها تلامس مطار أتاتورك .

إلى سعاد وحمدي وعمي رمضان وشيخ الكتب سالم والمناضلة صليحة ، إلى الأستاذ معاذ وكل الحكايات شكرا لكم ...

إلى مغاربيتي أنا وسعيد التي تؤمن بالحب حد التملك .

إلى كل صناديق البريد ورزم الورق وزوجتي المزعجة ..

إلى الأنا المصنوع من الورق ...

وداعا "

وبعدها رميت القلم وخرجت لأتمشى لوحدي بشوارع العاصمة لأستنشق كما من الهدوء ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أصرخ بأعلى صوتي شاخصا للقمر مناديا "سعيييد ...سمييية ...".ودموعي تحرق قلبي المكلوم .وبعدما أُنهكت أمسكت معطفي وحملت قطعة حجر وكتبت بجذع شجرة عتيقة (بائع الأحلام).

المشهد الأخير :

"عودة الروح ..."

"..... لما ؟." قُلتها أنا ....

_دخلت البيت منهكاً من حفل تقديم الطبعة الثالثة من روايتي ،والكم الهائل من الأسئلة المجترة للصحافة ،لم أجد زوجتي بالبيت فوفرت عني تلك الكلمات الروتينية التي تشعرها أنها تحيا بقلبي المتخم بالذكريات .توجهت صوب الحمام لأغسل عني جميع لعنات الصباح لعلي أشفى .

وبعدها فتحت بريدي لأجد رسالة :

"منذ زمن طويل لم أراسلك .منذ أن اتخذت سبيل الرحيل وسميت بالمهاجرة وصودر جواز سفري وتخلصت من جميع مفرداتهم .

أتراك مازلت تمارس الكتابة والكآبة معا .فنحن هنا لا تأتينا أخبار العرب ولا ألسنتهم المصفدة بالورق . ولكن قبل شهر سمعت عبر إذاعة ال "BBC" عن رواية جديدة وبمجرد أن سمعت عنوانها عرفت أنها لكَ أو بالأحرى لذكرانا معا. فتلك الكُنية كانت ملكي ذات مساء ...

أترانا كبرنا لنتراسل ...دمت وفيا للذكرى ...

....سيدة المعبد "